جميل سلطان

دكتور في الآداب

وعضو المجمع اللغوي للدراسات السامية في باريز



إرث الأندلس الثمين

دراسة وشواهد

١٣٧٢ هـ ١٩٥٣

جميل سلطان

دكتور في الآداب

وعضو المجمع اللغوي للدراسات السامية في باريز



الموشحات

إرث الاندلس الثمين

دراسة وشواهد

١٣٧٢ هـ ١٩٥٣

بسم الله الرحمن الرحيم

عهدي بالموشح — وأدب الاندلس — قديم ، ولعله أقدم مما يُتخيَّل ، فلقد كان ذلك من عهد الصبا المبكر ، يوم كانت العين تتفتح على حنان الابوة ، فترى المثل الطيب الصالح ، والنغم العذب الطروب ؛ وتشهد الاكبار للفن الدقيق ، والاعتصام بالترفع العيوف ، وتقرأ النظم الرائق الجديد ، في اطار من روائع الوحي القديم .

ثم كان من أمر التوجه الى الادب ، ان تألق نور الاندلس كأبهر ما يسحر ، فشغل أدبها من الزمن ما شغل ، واستنفد موشحها من الجهد ما استنفد ، حتى اذا وليت ادارة الاذاعة عام ١٩٥١ ، كان الموشح مما أُيِّد ونُشِّط ، ولعله بعدُ ، اوفر عندنا من كل اذاعة .

فان كان لتتبع الموشح في الأدب والفن من ثمر ، فهذه ثمرة عبقة ، ارفعها الى من يعجز في الوفاء بحقه ، توجيهاً وتعليماً ، وارشاداً وتقويماً ؛ الى من عرف رجال الفن من اطلاعه فوق مما عرفت ، وانتفعوا بثروته الفنية اكثر مما انتفعت :

الى والدي

محمد سليم سلطان

ارفع حصاد مَنْ عمل باخلاص ، ودعا في برّ ، واستشرف الى خير .

دمشق ١٣٧٢/٧/١٩ و ١٩٥٣/٤/٣

مواد الكتاب

فن التوشيح

طلائع التجديد

انطلقت عبقرية العرب الشاعرة في الأجواء الاندلسية انطلاقاً لم تكن لتعرفه من قبلُ في رحاب الشرق ، حينما كان يثقلها ما هي فيه من قيود الوزن ، والقافية ، ووحدة البيت ، وانسجام الفكر ، وتوازن المعاني ، ودقة الأداء في الكلام ؛

وتهيأ لتلك العبقرية في الأندلس من آفاق الغنى المستفيض والنعمة الهانئة ، واللذة الوافرة ، والطرب المثير ، ما لم يكد يعرفه المشرق على ذلك المقياس من الغزارة والاتساع .

فكان جديراً بتلك العبقرية أن تسجل صورة ذلك الزمن الرافه ، وتلك البيئة الطروب ، وأن تستجيب للتطور الذي ألفه الأدب العربي على الأيام .

وهكذا حلقت العبقرية الشاعرة في أجواء سمحة ، وطلعت على الناس بادب موشح ، حطم كثيراً من القيود في الشعر .

ولكن هذا التجديد لم يكن بدعاً في الفن، ولا مرتجلاً في الاسلوب، فقد ظهر في شعراء العربية المشارقة ايام بني العباس من كان ينزع إلى التجديد في الاسلوب، ويبحث عن الحرية في النظم ، رغم ما عرف به المشرق من أناة في التطور الادبي ، وحفاظ على الطريقة الموروثة في القصيد ، فكان أولئك النازعون الى التجديد طلائع الانطلاق ؛ ولو تهيأ لهم ما تهيأ للاندلسيين من بُعدٍ عن تيار المحافظة، وانغماسٍ في اللهو والهوى، وازدهار في الغناء والطرب، مع الطبيعة الساحرة، والثروة الوافرة، لو تهيأ كل ذلك لأوصلتهم الخطا إلى الموشح او الى شيء يشبهه .

واذا عدت إلى تطور الأدب العربي وما رافقه من مظاهر فنية ، الفيت في طبيعة الأدب نزوعاً الى التجدد في الاسلوب والاغراض

فمن تلك المظاهر الفنية المتجددة ثورةُ طائفة من الشعراء على المطالع الموروثة، من وقوف على الاطلال وبكاء للاحبة ، ونزوعهم إلى معالجة الموضوع رأساً ، أو التمهيد له بما يناسبه من حكمة او وصف او غيره، مما عد خطوة في تجديد المطالع ، كقول أبي نواس

لاتبكِ هنداً ولا تطربْ الى دعدٍ   واشرب على الورد من حمراءَ كالوردِ

وقوله :   (العقد ٤ / ٣)

عاج الشقيُّ على رسم يسائله   وعُجت أسأل عن خمارة البلد
يبكي على طلل الماضين من اسد   لا در درُّك قل لي مَن بنو أسد؟
ومَنْ تميمٌ ومن قيس ولفُّهما   ليس الاعاريب عند الله من احد
لاجفَّ دمع الذي يبكي على حجر   ولا صفا قلب من يصبو الى وتد

وقول ابي تمام:

السيف اصدق انباءً من الكتب   في حده الحد بين الجد واللعب

وكان من مظاهر التجديد في الاسلوب تلك العناية الفائقة بأنواع المحسنات البديعية المختلفة ، لفظيةً ومعنويةً ، وكثرةُ الاعتماد على الصور والاستعارات والكنايات والتجسيم والتشخيص في اداء الافكار ، مما أشرنا اليه في كتابنا عن ابي تمام ،

وكان من مظاهر التجديد في الأغراض والاوزان ما نظم من الأقاصيص والأمثال والحكم في مقطوعات اومزدوجات: كل شطرين منها على قافية واحدة ؛ فقد ورد ان ابان بن عبد الحميد اللاحقي نظم كتاب كليلة ودمنة شعراً ، ونظم ابو العتاهية قصيدته ذات الامثال في اربعة آلاف مثل ، كما ذكر صاحب الاغاني ، وفيها يقول :

حسبك مما تبتغيه القوتُ ما أكثرَ القوتَ لمن يموت

هي المقادير فلمني او فذرْ ان كنتُ أخطأت فما اخطا القدر

ان الشباب والفراغ والجدهْ مفسدة للمرء أيّ مفسده

إن الشباب حجة التصابي روائح الجنــــة في الشباب

وخلد اديب الانداس الكبير ابن عبد ربه غزوات الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وما أفاض على البلاد من أمن بعد حرب ، في منظومة مزدوجة حاكى فيها طريقة ابي العتاهية في ذات الأمثال ، فوصف الحياة الاجتماعية والحربية وما كان من أخلاق الناصر الكريمة ، وهمتــه الرفيعة ، وسخائه الغمر ، وحروبه المتواصلة ، واستيلائه على المدن ، وتدرج في ذكر كل ذلك بحسب السنوات التي ولي فيها مقاليد الحكم في الاندلس ؛ وهي مزدوجة طويلة تقع في اكثر من اربعمائة بيت فكان مما قال فيها :

(العقد ٣ / ٢٠٩ ـ ٢٢٧)

مؤيّد حكّم في عداتهِ سيفاً يسيل الموت من ظباته

قد اشرقت بنوره البلاد وانقطع التشغيب والفساد

هذا على حين طغى النفاق واستفحل التكاب والمراق

وضاقت الارض على سكانها واذكت الحرب لظى نيرانها

تأخذنا الصيحة كل يوم ... فما تلذ مقلة بنوم
حتى أتانا الغوث من ضياء ... طبق بين الارض والسماء
هو الذي جمع شمل الامة ... وجاب عنها دامسات الظلمة
فجمع الاجناد والحشودا ... ونفّر السيّد والمسودا
حتى تداعى القوم يوم السبت ... فكان وقتاً ياله من وقت
فاشرعت بينهم الرماحُ ... وقد علا التكبير والصياح
وفارقت أغمادها السيوفُ ... وفغرت افواهها الحتوف

وختمها بقوله :

ثم ثنى الامام عن عنانه ... وقد شفى الشجيْ من اشجانه
وأمّن القفار من انجاسها ... وطهر البلاد من ارجاسها

وكان من منازع الشعراء الى التجديد تلك المسمّطات التي تتضمن أحياناً ثلاثة اشطر على قافية واحدة ويكون الشطر الرابع هو المتّبع في السِمْط الى منتهاه ، مثل قول بعض المحدثين .

وشيبةٍ ... كالقِمَمِ ... غيّرتُ سود اللِمَمِ
داويتُها ... بالكَتَمِ ... زوراً وبهتانا

وقالوا في تعريف المسَمّط من الشعر : إنه ابيات مشطورة تجمعها قافية واحدة ؛ وقيل هو ما قُفّي ارباع بيوته وسمّط في قافية مخالفة ، كما رأيت في المثال المتقدم ؛ وقال الليث : الشعر المسمط:

الذي يكون في صدر البيت ابيات مشطورة او منهوكة مقفاة ويجمعها قافيـة مخالفة لازمة للقصيدة حتى تنقضي ، قال : وقال امرؤ القيس في قصيدتين سمطيتين على هذا المثال ، يسميان السمطين ،وصدر كل قصيدة مصراعان في بيت،ثم سائره ذو سموط فقال في احداهما :

ومستلئم كشفت بالرمح ذيله   اقمت بعضب ذي سفاسق ميله
فجعت به في ملتقى الخيل خيله   تركت عتاق الطير تحجل حوله
كأن على سرباله نضح جريال

واورد ان برى مسمط امريء القيس :

توهمت من هند معالم اطلال   عفاهن طول الدهر في الزمن الخالي

* * *

مرابع من هند خلت ومصايف   يصيح بمغناها صدى وعوازف
وغيرها هوج الرياح العواصف   وكل مسف ثم آخر رادف
بأسحم من نوء السماكين هطال

واورد ان برى لآخر :

خيال هاج لي شجنا   فبت مكابداً حزنا
عميد القلب مرتهناً   بذكر اللهو والطرب

* * *

سبتني ظبيةٌ عُطُل ... كأن رضابها عسلُ
ينوء بخصرها كفلُ ... بثيل روادف الحقَب

* * *

يجول وشاحها قلقاً ... اذا ما ألبست شفقا
رقاق العصب او سرقا ... من الموشيَّة القُشُب

* * *

يُمج المسك مفرقُها ... ويصبي العقل منطقُها
وتُنمي ما يؤرقُها ... سقام العاشق الوصِب(١)

وليس الدوبيت (البيتان) غير مظهر آخر من مظاهر

الانطلاق وذلك مثل قول ابن الفارض:

اهوى قمراً له المعاني رقٌ ... من صبح جبينه اضاء الشرق
تدري بالله ما يقول البرق ... ما بين ثناياه وبيني فرق

وقول الآخر :

ان جئت ربا الحمى ولاحت نجدُ ... فاذكر ولهي وما جناه البعدُ
قد كنت اقاسي البعد حتى رحلوا ... يا ليتهم عادوا وعاد الصدُّ

فهذه وغيرها مما بسطنا عنه الكلام في « فنون الشعر »

محاولات للافلات من القيود القديمة ؛ واذا كان بعض

الفحول من الشعراء لا يرون في هذه المظاهر دليلاً على قوة

---

(١) انظر لسان العرب ٩ / ١٩٦ ، وكتابنا عن فنون الشعر

الشاعرية ، والتمكن من القريض ، فقد كان فريق آخر يرى ان التطور الفني يقتضي تجنيب الشعر بعض قيوده القديمة التي يرزح تحت أثقالها ، وأنه لا بد من تطور فيه الدليل على الحياة ، لأن كل شيء لا يتطور فاذا مرده الى الهلاك ؛ وها هي ذي الحياة العباسية نفسها قد أخذت بالتطور والانطلاق في كثير من المفاهيم الاخلاقية والاجتماعية والمعاشية ، وإذا كان الشعر ، وهو صنو النثر ، وأحد فرعي الأدب ، اذا كان مرآة تعكس مشاهد الحضارة الجديدة ، فما أجدره بأن يسارق الزمن ، ويساير الركب ، فيتأثر بتأنق الحياة الجديدة ومنازعها في الحرية والمذاهب المختلفة .

ولكن الحياة في الشرق العربي تصطدم دائماً بالإرث الموروث، الذي ينظر إليه أبناؤه كأنه عنصر من عناصر البقاء والخلود ، أضف الى ذلك ان البادية الرابضة على أبواب الحضارة الجديدة هي مهد العربية ، ومعقلها الحصين ، يرتادها الفصحاء ، ويحج اليها العلماء ، وتهب منها نفحات البداوة العربية الخالصة ، فتثير في

قلوب المشارقة رسيس الحنين اليها ، وتؤرث فيهم نار الحفاظ على لغتها وطريقتها ، ولذلك كان من العسر والشدة أن يشق الشعر طريقه المتجددة في مثل هذه الرحاب ، ولكنه حينما غرّب وحط رحاله في الاندلس بعيداً عن تلك النوازع المحافظة ، قريباً من المؤثرات الاعجمية المختلفة ، كالعادات واللغة ، أخذ يرفل في مطارف التنميق والتهذيب ، ويحلق في آفاق جديدة ملهمة ؛ فكان ما رآه في الدنيا الجديدة مدعاة الى التحلل من كثير من القيود ، وإذا به يخرج على الناس في حلة جديدة من خالص نسج الاندلس هي حلة التوشيح التي لم يعرفها المشرق قبل المغرب ، وقد اعان على تكوينها نهضة جبارة في الغناء والالحان ، تهيأت للاندلس بفضل طبيعتها الجميلة ، وترفها المغرق ، ورحيل كبار المغنين والمغنيات اليها امثال زرياب والجواري فضل وعلم وقلم وقمر والعجفاء ؛

الموشح وحدوده الفنية .

فنظم المغنون والشعراء الاندلسيون والمغاربة تلك الموشحات وجعلوها « اسماطاً اسماطاً ، واغصاناً اغصاناً » كما يقول ابن خلدون ،

واكثروا منها ومن اعاريضها المختلفة ، وسموا المتعدد منها بيتاً واحداً ، والتزموا عنـد قوافي تلك الاغصان واوزانها متتالياً فيما بعد الى آخر القطعة ، وأكثر ما تنتهي عندهم الى سبعة ابيات ، ويشتمل كل بيت على أغصان ، عددها بحسب الاغراض والمذاهب» (المقدمة ص ٥٤١) وسموا هذا النوع الجديد باسم الموشح نحو :

جزء

(قفل) : أدِرْ لنا اكواب . يُنسى بها الوجد . واستحضر الجلاس . كما اقتضى الود

* * *

جزء

بيت :

دِنْ بالصبا	شرعا	ما عشتَ	يا صاح
ونزِّه	السمعا	عن	منطق اللاح
فالحكم ان	تسعى	عليك	بالراح

* * *

(قفل) : انامل العناب . ونُقلك الورد . حف بصدغي آس . يلوبها الخد

* * *

بيت :

لله	ايامُ	دارت بها	الخمرُ
والروض	بسام	باكره	المطر
وصلٌ	وإلمامُ	واوجهٌ	زُهز

فنحن بالاصحابْ . قد ضمنا عقدُ . ويا ابا العباسْ . لا خانك الجدُ

خليفةٌ منكا فينا ابو بكرِ
ناب لنا عنكا في النهي والامرِ
لا نتقي ضنكا من نوب الدهر

وانتمُ ارباب . ما شيد المجدُ . وان بلونا الناس . فهم لكمْ ضدُ

حليت(انا) الدنيا من بعد تعطيل
وجاءنا يحيي بين البهاليل
اغر بالعليا من فوق تحجيلِ

يختال في اثواب طرزها الحمد . وافرط الايناس فما له حد

بينا انا شاربْ للقهوة الصرفِ
وبين آنا تايب لكن على حرْف[1]
اذ قال لي صاحبْ من حلبة الظّرف

نديمنا قد تاب . غنِ له واشدُ . واعرض عليه الكاس . عساه يرتدْ

(دار الطراز ٤٧—٤٨)

---

(١) أي توبة غير ثابتة ولا متينة واقرب الى الارتداد ، واحسب في الكلام اشارة الى آية من القرآن الكريم : « ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خيرٌ اطمأن به ، وإن أصابته فتنةٌ انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين . (الحج ١١)

فالاشطر الاربعة الاولى التي بدأ بها الموشح تسمى (قفلا)
وقد تألف القفل هنا كما ترى من اربعة (اجزاء) انتهى كل
(جزء) بروي خاص (اكوابْ . الوجدُ . الجلاسْ . الودُ)
واذن فالموشح هنا مبدوء بقفل مؤلّف من اربعة اجزاء ،
واذا عدت تنظر في الموشح رأيت بعيداً عنه قفلاً آخر وهو

(انامل العناب . وتقلك الورد . حف بصدغي آس . يلويها الخد)

وقد التزم في هذا القفل ما التزم في القفل الاول من الروي ،
ومن عدد الاجزاء ، ومن الوزن .

وهكذا تجد القفل الثالث :

(فنحن بالاصحاب . قدضمنا عقد . ويا اباالعباس . لا خانك الجد)

فقد التزم فيه ما التزم في الاول من الروي ، وعدد الاجزاء ،
والوزن ؛ واذن فالقفل يبقى المثال الذي يجب أن يعتمد عليه في
الموشح بالمحافظة على عدد اجزائه ورويه ووزنه

واذا نظرت بين القفل الاول والقفل الثاني وجدت ستة
اشطر يسمى مجموعها (بيتاً) ولكنه في الواقع ، وبالنسبة لما
تعرفه من علم العروض ، مؤلَّفٌ من عدة ابيات وإنما

المصطلح عليه في الموشحات ، ان نسمي ما بين القفلين (بيتاً) ولو كان مؤلفاً من عدة اشطر .

فاذا نظرت في البيت وجدته مؤلفاً من ثلاثة اجزاء :

الجزء الاول منه هو : دن بالصبا شرعا ما عشت يا صاح

والجزء الثاني منه هو : ونزه السمعا عن منطق اللاحي

والجزء الثالث منه هو : فالحكم ان تسعى عليك بالراح

فاذا اخذت الجزء الاول منه وجدت له نوعين من الروي : في الفقرة الاولى (شرعا) وفي الفقرة الثانية (صاحِ) وقد التزمها الوشاح ، فهذه اذن أصول البيت : وهي ان يتألف من اجزاء وفقرات ويكون عدد ما يجيء به الوشاح ووزنه ملتزماً في بقية الابيات ، اما الروي فللوشاح الخيار والحرية في التزامه وعدمه ، والافضل ان يكون الروي مختلفاً في الابيات ، وهاهو ذا الوشاح يقول في البيت الثاني (بين القفلين الثاني والثالث)

لله ايامُ دارت بها الخمرُ
والروض بسامُ باكره القطر
وصلٌ والمامُ واوجهٌ زهرُ

فانت ترى انه لم يلتزم الروي الذي التزمه في البيت الاول ولكنه التزم الوزن وعدد الاجزاء .

ونستنتج بعدئذ ان روي أعاريض الاقفال وضروبها وعدد اجزائها واوزانها واجبة الالتزام في الموشح ، وهي الاصل الملتزم والاساس الذي يحتفظ به ، بينما لا يلتزم في الابيات غير عدد الاجزاء (بما فيها الفقرات) والاوزان ، واذا ذكرت ان القفل في الموشح المتقدم مؤلف من اربعة اجزاء ، فاذكر الى جانب ذلك ان القفل في صنعة الموشحات لا يكون اقل من جزأين كقول بعضهم:

شمس قارنت بدراً راح ونديم

والوشاح ان يبني قفله على اجزاء متعددة قد تبلغ الثمانية ، وربما بلغت الاجزاء التسعة او العشرة ، ولكن ذلك قليل نادر ، وعلى كل حال فاذا كان القفل الاول مؤلفاً من عدد من الاجزاء معين وجب ان تكون اقفال الموشح كلها مؤلفة من العدد نفسه ، ويندر في بعض الموشحات الشاذة التي لا يعول عليها ان تكون أقفالها مختلفة اعداد الاجزاء ، كأن يأتي القفل الاول مؤلفاً من جزأين وبقية الاقفال من ثلاثة .

وجرت العادة ان يبدأ الموشح بقفل ثم ينتهي بقفل وأن يتردد القفـل في الموشح ست مرات وعندئذٍ يسمى الموشح (تاماً) فاذا لم يبدأ الموشح بالقفل وإنما ابتدأ بالبيت سمي الموشح (اقرع) وعلى هذا فالقفل اذن يتردد خمس مرات في الموشح الاقرع وست مرات في الموشح التام .

فلننظر في موشح أقرع (لابن سناء الملك ٩٦) مبدوء بالبيت ، ولنكتف بقسمٍ منه :

دانت لِيَ الدنيا وواصل الوصلا
من هو لى محبا وصار لي خلا
لا أسمم النهيب فيه ولا العذلا
ما اعطر الاقيا له وما احلى

تلك الحلس . من النفـّس . او اللبس . لقد كمل . بدرٌ طرق
مثل الفلق . تحت الغسق . حتّى سرق . آلباب . اهل الصواب

ما صال حق صاد بطرفه الوسنان
وصير الآساد فرائس الغزلان
واخلف الميعاد واخجل السلوان
جبينـــه الوقاد إن شيت والفتّان

فيه قبس تحت الغلس . وقد حرس . ورد الخجل . نبل رشق
حتّى ابق . قلبي فرق . فالمحدق . نشاب . بها نصاب

هذا الموشح كما ترى (اقرع) لانه مبدوء بالبيت لا بالقفل ، وكل قفل فيه مؤلف من عشرة اجزاء ملتزمة الروي والوزن مع التزام العدد .

اما ابياته فرددت في أصل الموشح خمس مرات ، وكل بيت منها مؤلفٌ من اربعة أجزاء ، وكل جزء مؤلفٌ من شطرين او فقرتين .

والفقرة في الاصل اما أن تتألف من القافية او الروي في كلمة واحدة واما ان تضم اليها بعضَ الكلام القليل المنظوم قبلها ، فمن ذلك قول ابن سناء الملك (١٠٥) في البيت المؤلف من ثلاث فقر وثلاثة اجزاء (والبيتان بين ثلاثة أقفال) :

(قفل) صلني . يا جنة الخلد . يا فتنة الناس . يا دعوة المظلوم

بيت {
حسبُك . قد اشتفيت مني . ولا اقول حسبي
قربُك . يا غاية التمني . ومُنية المحب
قلبُك . ضنَّ ولم يعدني . ولا رثى لقلبي
}

عدني . قنعت بالوعد . لان وسواسي . يقول بالمعدوم

عقلي . سبيته بناظر . يحيي كما يميت
شغلي . شغنه بخاطر . من ذكرك الشتيت
قل لي . ان كنت غيرذا كر . عهدي وقد نسيت

إني . باقٍ على العهد . لكنني ناسٍ . لسرنا المكتوم

واعلم بعد هـذا ان البيت يؤلف على الأغلب من ثلاثة اجزاء ، ويمكن أن يؤلف من جزأين ، ويندر أن يكون من ثلاثة أجزاء ونصف ؛ وقد رأيت ان الأجزاء التي تؤلف البيت تتألف من فقرات ، فقد يكون جزء البيت مركباً من فقرتين او ثلاث او اربع فقرات ، وقد يكون الجزء مفرداً غير مؤلف من الفقرات .

وهاك موشحاً أقرع ، بدأه الوشاح ببيت مؤلف من ثلاثة أجزاء وكل جزء فيه اربع فقرات ، ومن النظر في الفقرات الآتية يتبين لك ان الفقرة تكون القافيةَ وحدها حيناً ، وتنضم اليها بعض الكلام المنظوم الموزون حيناً آخر ؛ يقول الوشاح :

(هو عبادة القزاز كما ذكر ابن خلدون في المقدمة ٥٤٢ ، ويصحح ابن بسام النسبة الى محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز كما في الذخيرة ٢/٢٩٩ ولا ينسبه ابن سناء الملك لاحد . شأنه في الموشحات التي نقلها عن غيره في كتابه دار الطراز ص ٦٥) .

بيت { بأبي . ظبيَ حمى . تكنفهُ . أسدُ غيل (جزء فيه ٤ فقرات)
مذهبي . رشفُ لمى . قرقفهُ . سلسبيل
يسبي . قلبي بما يعطفهُ . اذ يميل

قفل { ذو اعتدال . يعزى الى . ذي نعمة ثابت
في ظلال . تحت حلى . قطر الندى بائت

ذو فتورْ . ذو غنجٍ . ذو مرشفٍ . العسِ
العَبيرْ . في ارجٍ . والحسن في . ملبسٍ
كم يُثير . وجدَ شجٍ . بالدنف . مكنسٍ

ذو اعتدال . لو علا . انطق عن ساكتٍ
وغزال . لو مَقلا . ألحظ عن باهتٍ

واعلم بعد هذا أن البيت اذا كان يتألف من فقرات ، فان القفل لا يتركب منها أبداً ، وانما يتركب من اجزاء ، والجزء من القفل لا يكون إلا مفرداً ، بمعنى انه وحدة مستقلة ؛

واذن فالاقفال تنبغي تألف الاجزاء فقط ، واما الابيات فتنبغي تألف الاجزاء المؤلفة من فقرات متعددة او مفردة غير مركبة ، والالتزام يقع في الاقفال على الوزن والقوافي وعدد الاجزاء ، ويقع في الابيات على الوزن وعدد الاجزاء ، ويحسن التنويع في القوافي .

ولا بد من الاشارة هنا الى ان بعض الوشاحين الماهرين كانوا يخالفون القاعدة الاصلية حيناً في وجوب التزام الوزن

الواحد ، في الاقفال والبيوت ، ولا يقدم على هذا إلا البارع في صناعة الموشحات ، العارف بايقاع الألحان ، فمن ذلك قول ابن سناء الملك :

بيت { غزال فرّ من جنات عدن وابدى بدر تمّ فوق غصن
ولّى آخذاً للعقل مني فقل للبدر بدر الأفق عني }

(قفل) ان بدري غايب وكن لطرفي نائب

شقيت به وقيل لي السعيد واغواني ووالدي الرشيد
امير من مماليه الجنود وقاض من شمائله الشهود
وكريم كاتب لقد علا اعلى المراتب

على ان هذا الخروج عن التزام وحدة الوزن في الأقفال والأبيات قليل نادر .

وبعد فاذا نظرت إلى أي موشح كامل وجدته ينتهي (بقفل) ، وهذا القفل الأخير من الموشح يسمى (خرجة).

ويشترط الأولون ان تكون هذه الخرْجة حلوة عذبة ، تخلب الألباب وتهز النفوس ، ينتقل اليها الشاعر عن طريق (قال) او (قلت) او (غنى) او (غنيت) على لسان الطير او الحب او السكران او غير ذلك .

فمن ذلك قول عبادة القزاز على لسان الحمام في موشح مدح فيه المعتصم والمعتضد الاندلسيين وانتهى فيه إلى قوله :

حازا حِكَمْ . اعيتْ خلدْ . لقمان
الى هممْ . جازت امدْ . كيوان
كل الأنامْ بذاك يعتقدُ
في الكرام كلاهما فرد
ان الحمامْ في ايكها تشدو
قل هل عَلِمْ . او هل عُهِدْ . او كان
كالمعتصمْ . والمعتضدْ . ملكان

ولهم في الخرجات رأي غريب ، وها هو ذا ابن سناء الملك يقول : « والشرط فيها (أي الخرجة) أن تكون حجّاجية من قبل السخف ، قُزمانية من قبل اللحن ، حارّة محرقة ، حادة منضجة ، من الفاظ العامة ولغات الداصّة[1] فان كانت معربة الألفاظ منسوجة على منوال ما تقدمها من الأبيات والأقفال خرج الموشح من ان يكون موشحاً اللهم الا ان كان موشح مدح وذكر الممدوح في الخرجة فانه يحسن ان تكون الخرجة معربة . . . » . (ص ٣١)

---

(١) الداصّة : جمع الدائص وهو اللص . اشتهر ابن الحجاج في المشرق بالنوادر والهزل ، وابن قزمان باللحن والزجل في المغرب .

وإذن فان كان الغرض من الموشح مديحاً أو كلام جد ، فلا بد من مراعاة القواعد النحوية والصرفية في الخرجة ، وان كان الغرض لهواً أو مجوناً أو تندراً فلا بد من أن يجول الشاعر مجال المجّان من الشعراء الذين لا يبالون أن يتعرضوا إلى الدعارة والفسوق في أقوالهم وأن يخرجوا على القواعد النحوية المألوفة أو الكلمات الصحيحة ، ومن أجل هذا كثرت ألفاظ العامة وسخفهم وطريقتهم غير المعربة في كثير من الموشحات وفي الخرجات خاصة ، وإذا كان ابن سناء الملك قد ذهب إلى أنّ تلك الطريقة أصل في الموشح وأنه لا بد من سلوك ذلك المسلك من اللحن والتحلل من القيود فان الأبشيهي (٧٩٠ — ٨٥٢ ه) قد أنكر اللحن على الوشاحين ورأى ان الموشح والعروض والدوبيت يجب أن تكون معربة أبداً ولا يغتفر فيها اللحن (المستطرف ٢/٢٧٧)

فما ورد من الخرجات العامية قول ابن بقي : (٣٢ و ٧١ دار)

انا وانتا اسوة هذا المهجر

بالصبر بتنا مع انصداع الفجر

ومذ رحلنا غنى الجوى في صدري
سافر حبيبي سَحَرْ وما ودعتو
يا وحش قلبي في الليل إذا افتكرتو

وكان المتقدمون ينصحون بأن ينظم الشاعر الخرجة قبل نظم الموشح ، لتكون الخاتمة مهيأة بما فيها من طرافة أو سخف أو مجون أو تصريح بما لا يُرضى من القول ، فاذا لم يتهيأ له شيء من المعاني الصريحة أو المجون الظاهر في خرجة مناسبة فلا بأس بأن يستعير من شعر غيره ما يعجب أو يطرب ، فيتخذه خرجة لموشحه من قبيل الاستعارة والتضمين ، وهذه الطريقة عندهم أصوب وأفضل ممن يجدّ ويعرب ، فلا يخف ولا يطرب ، وإذا لم يجد ما يناسبه في العربية الملحونة ، فلا لوم عليه ان يستعير ذلك من الأعجمية أو العامية ، كل ذلك جرياً وراء المعنى السوقي ، واللفظ الصريح ، والفكرة الغريبة ، أو الادب المكشوف ، ومراعاة الذوق الذي فسد بتحكم اللحن فيه ونبوّه عن الفصحى ، وقد دلنا اديب الأندلس الكبير ابن شُهيد الذي عاش في القرن الخامس على مبلغ ما وصل إليه انتشار

اللحن حين قال عن عصره إنه « ليس لسيبويه فيه عمل ولا للفراهيدي إليه طريق» (رسالة التوابع والزوابع في الذخيرة ١/٢٢٩)

فمن الخرجات الجيدة المستعارة ما تراه في آخر هذا الموشح الذي يتركب قفله من جزأين وبيته من ثلاث فقرات .

شمس قارنت بدرا   راحٌ   ونديمْ
أدر أكؤس الخمرِ   عنبرية النشرِ   إن الروض ذو بشر
وقد درّع النهرا   هبوبُ   النسيمْ
وسلت على الأفقِ   يدُ الغرب والشرق   سيوفاً من البرق
وقد أضحك الزهرا   بكاء   الغيومْ
ألا إن لي مولى   تحكم فاستولى   أما إنه لولا
دموع تفضح السرّا   لكنت   كتومْ
أنّى لي كتمان   ودمعي طوفان   شبت فيه نيران
فمن أبصر الجمرا   في لج   يعوم
إذا لامني فيه   من رأي تجنيه   شدوت أغنيه
(لعل له عذرا   وأنت   تلومْ)

فهذا الموشح يتضمن ستة أقفال ويبتدىء بواحد منها وفيه خمسة أبيات فهو موشح تام وفي آخر البيت الخامس سبيل التوصل إلى الخرجة وهو قوله (شدوت أغنيه) وهذه الخرجة

التي انتهى بها مستعارة من الشعر القديم يتمثل بها في أماكن الاعتذار عن اللوم : لعل له عذراً وأنت تلوم :

ولابن الوكيل موشح أخذ له اعجاز قصيدة ابن زيدون المشهورة وجعلها خرجات فقال :

يا صاحب النجوى قف واستمع مني
إياك أن تهوى إن الهوى يضني
لا تقرب البلوى اسمع وقل عني
بحاره مرة خضنا على غرة
حيناً فقام بنا للنعي ناعينا

مَنْ هام بالغيدِ لاقى بهم هما
بذات مجهودي لأحورِ ألمى
بهم بالجود وردٌ ما همّا
وعندما قد جادْ بالوصل او قد كاد
أضحى التنائي بدلاً من تدانينا

(نفح الطيب طبعة الرفاعي ٥/٢٣٤)

وكان ابن المعتز قال في قصيدة له :

علموني كيف أسلو وإلا فاحجبوا عن مقلتيَّ الملاحا

فجاء ابن بقي وهو أحد الوشاحين المشهورين ، وجعل البيت خرجة فقال في آخر موشحة له :

لست اشكو غير هجر مواصل

مذ منعت القلب عن عذل عاذل

وتغنيت لهم قول قايل

علموني كيف اسلو وإلا فاحجبوا عن مقلتي الملاحا

واستعارة الأبيات من الشعر الموشح لا يقف عند القفل الاخير، فربما عمد الوشاح إلى أخذ بعض الألفاظ من الشعر القديم ليجعلها في بيت من أبيات موشحه، وهذا كما جم يقول :

يقولون تب والكأس في كف اغيد وصوت المثاني والمثالث عالي
فقلت لهم لو كنت اضمرت توبة وابصرت هذا كله لبدالي

فقال ابن بقي، وحل في موشحته هذين البيتين وجمل الاستعارة ضمن الموشح :

قالوا ولم يقولوا صوابا

انهيت في المجون الشبابا

فقلت لو نويت متابا

والكأس في يمين غزالي والصوت في المثالث عالي لبدالي

الأسماط والأغصان والتوشيح

وإذا عدت بعد هذا تنظر في تركيب الموشح وترتيبه ، وكيف يبدأ بالقفل ، ويعقبه البيت ، ثم يتداول النظم ما بين أمور أساسية ملتزمة ، وفروع يلتزم فيها شيء ، ويطلق شيء آخر ، إذا نظرت في ذلك تبينت السبب في تسمية بعضهم القفل (باللازمة) لما يلتزم فيه من الروي والوزن والعدد في جميع الأقفال ، وتسمية البيت (بالدور) لأنه يدور فيأتي غيره مكانه مما هو غير ملتزم الروي في الصدر والعجز ، كما انك تستبين ما عناه ابن خلدون في مقدمته حين قال عن الموشح : « ينظمونه أسماطاً أسماطاً ، وأغصاناً أغصاناً ، يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة ، ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً ، ويلتزمون عند قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتالياً فيما بعد إلى آخر القطعة ، وأكثر ما تنتهي عندهم إلى سبعة أبيات ويشتمل كل بيت على أغصان عددها بحسب الأغراض والمذاهب . ويظهر لك من كلام ابن خلدون ان في الموشح أيضاً نوعين من التسمية هما الاسماط والاغصان ،

ويريد بهما الأقفال والأبيات بدليل قوله « إنهم يكثرون منها (أي من الاغصان) ومن أعاريضها المختلفة ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً » ، وقد رأينا كيف تتعدد الأشطر وتؤلف البيت ، ويظهر من قوله أيضاً أن الأغصان هي الأجزاء التي تؤلف البيت ، بدليل قوله « ويشتمل كل بيت على أغصان » .

فالأسماط إذن هي الأقفال ، والأغصان هي أجزاء الأبيات ، وهو ما نرجحه ، وان كان بعضهم يرى ان السمط هو القفل والبيت معاً ، وينفي هذا الرأي ما ينشأ عنه من نتيجة . ذلك أننا إذا سلمنا بان السمط هو القفل والبيت الذي يليه معاً ، فأين يكون الغصن ؟ ومنشأ هذا التردد ، ان الذين تحدثوا عن الموشحات من القدامى ، لم يحددوا الأسماط والأغصان بأكثر مما حدده ابن خلدون ، حتى أن ابن سناء الملك وهو من أوسع من تحدثوا عن صنعة التوشيح لم يحدد الأسماط والأغصان .

ومن الغريب أن يذهب بعض المؤلفين الأجلاء الى تسمية مقلوبة فيري ان القفل الأول هو الغصن ، وان البيت الذي

يليه هو السمط ، وان القفل الثاني هو القفل ، وان مجموع هذين الاثنين (السمط والقفل) هو البيت ، ولعل هذا راجع الى عدم تبين عبارة ابن خلدون في بعض أماكنها الغامضة .

والناظر في أمثلة ابن سناء الملك العملية التطبيقية يرى وجه الصواب الذي بسطناه ، ويجلو الغامض من عبارة سواه .

وأصل التسمية في الأسماط ترجع الى المعنى اللغوي في السِمْط ، فهو القلادة او الخيط فيه لآلىء واحجار كريمة أو خرز ثمين ، وقد شبهوا به القفل إذ كان كالقلادة في الموشح وشبهوا الأبيات بالأغصان ، إذ كانت متشعبه متفرعة ؛

وأما أصل تسمية هذا الضرب من الشعر باسم الموشح ، فلا شك في أنه يعود إلى طريقة نظمه وترتيبه ، وتفنن الناظم في نظمه ، ومخالفته بين الأقفال والأبيات ، جمالاً وطرافة ، فقد أوحت هذه الأمور كلها ان تستعار كلمة التوشيح من اللغة ، إلى هذا النوع من الشعر ، فأخذت الكلمة من توشيح الثوب إذا طرز

ووشي ، ووضعت له الحجارة الكريمة ، والوشاح : أديمٌ عريض النسج ، يرصع بالجواهر واللآلي ، في نظمين متخالفين معطوف أحدهما على الآخر ، تشده المرأة بين عاتقها وكشحيها ، والتوشح بالثوب هو أن يدخل الرجل الثوب من تحت يده اليمنى فيلقيه على منكبه الأيسر ، كما يفعل المحرم في الحج ، ثم يعقد طرفيهما على صدره .

وعرف عن الموشحة من الظباء والشاء والطير أنها ذوات الطرتين من جانبيها ، والوشحاء من المعز السوداء الموشحة ببياض ، والديك الموشح هو الذي له خطتان كالوشاح .

ولما ألّف ابن سناء الملك كتابه (دار الطراز) في عمل الموشحات ، لاحظ معنى النسج الموشح في اسم الكتاب ، فان أصل دار الطراز : المصنع الذي تصنع فيه الثياب الحريرية الموشاة التي كانت تعمل للأمراء والسلاطين ، كما سيأتي الكلام على ذلك فيما بعد .

أصل الموشح وتطوره

ولك أن تتساءل بعدُ ، عن هذا المنزع في الحرية الشعرية وكيف خرج به أهلوه إلى الكلام الملحون واللفظ الأعجمي الرديء ، وما كان للشعر الذي أحب أن ينطلق من القيود القديمة ، أن يسف إلى هذا الموضع ، فيتبدل بالفصاحة عجمة ، وبالجد هزلاً ، وبالجودة رداءة وإسفافاً .

وإذا كان اللحن قد شاع في ربوع الأندلس أيام الموشحات فما هو فيما أحسب أكثر ذيوعاً مما ترى في عصرنا الحاضر ، ومع ذلك فالناس اليوم لا يرتضون من الشعراء مثل ما كان يرتضي الأندلسيون .

وأحسب أن سر ذلك الاسفاف ، كثرة الاختلاط بالاعاجم من أهل جزيرة الأندلس ، فقد كثر التزاوج بين الجنسين : العربي والاسباني ، واستسلم الفاتح لعادات المغلوب ، وكثرت أنواع الملاهي التي أغرق فيها الشعب العربي ، والجيل المزيج ، واتصلت الأفكار بين العرب وغيرهم ، وكان أدب الأسبان

في ذلك العهد لاتهذبا برعاه الخواص ، وكان للأسبان عامية نشأت عن الأصل اللاتيني ، كما نشأت لغات عامية ثانية في بلاد الأفرنسيين والطليان وغيرهم ، وكان للعامية الاسبانية شعراء يتفننون بأشعارهم التي ينقصها الكمال في الأوزان والقوافي ؛ وهنا يرى فريق من الباحثين ان تلك الأغاني الشعبية الاسبانية التي كانت على مسمع ومرأى من العرب ، هي التي دعت الفاتحين الى أن يقلدوا في التحرر من القوافي والأوزان ، وان عيلوا إلى الألفاظ الأعجمية الشائعة ، وساعدهم على ذلك ماوجدوا في الشرق من محاولة الانطلاق من القيود الشعرية الموروثة ، ويستدل الذين يقولون بتأثير الاغاني الشعبية الاسبانية على الشعر في نشأة هذا الفن ان أوزان الموشحات لا تنطبق على أوزان الشعر المعروفة ، وانها تعتمد على صنعة الغناء أول ما تعتمد .

وإذا كانت الأغاني الشعبية الاسبانية غير موجودة الآن لتصح المقارنة بينها وبين الموشحات ، فهناك مقطوعات شعراء التروبادور الذين كانوا في جنوب فرانسا في القرن العاشر

والحادي عشر ، فقد كانوا يتفننون بها ويتغزلون ويمدحون ويصفون ، إلا انها كانت هزيلة المعاني لاتلتزم القوافي الواحدة ، بل انها لتتغير بعد كل ثلاثة أجزاء او ستة ، مع محافظتها على الوزن الذي ترد فيه أولاً .

وقد عاشت هذه الأناشيد في القرن الثاني عشر ، وهو العصر الذي عاشت فيه الموشحات ، ولذلك يغلب على ظن ذلك الفريق ان تكون أناشيد التروبادور مؤثرة في نشأة الموشحات ، أو على الأقل عاملة على تأييد بعض خصائص التواشيح ، من عامية وانطلاق ، فان ما عرفه الأندلسيون العرب من ذلك الغناء مع ما عرفوا من بدء انطلاق الشعر ، حمل فريقاً منهم على ابتكار الفن الجديد ، فبدأوا أولاً بتقليد الشرق في الانطلاق ثم نظموا للغناء أيام ازدهاره ، ماجمع بين خواص الشعر والاغاني فكان فن الموشحات .

أوزان الموشح

يلاحظ قارىء الموشحات أمراً مهماً في أوزانها ، إذ يراها خارجة على الأوزان المعروفة في كثير من الأحيان ، والواقع أن الموشحات على ضربين : الاول منها ما جاء على أوزان العرب ، والثاني ما لاوزن له فيها ، ولا المام له بها .

فاما الضرب الأول ، وهو ما جاء على أوزان الشعر القديم فقسمان : **قسم بقيت أقفاله وأبياته موافقة لأوزان الشعر القديم** فلم ترد فيها كلمة تخرجها عن تلك الأوزان ، فكأن الشاعر لم يتحرر من الاوزان القديمة ، ولا استفاد من الرخص الجديدة ، ولذلك ترى بعض العلماء لايعدون هذا شيئاً في فن الموشح ، ولا ينظرون اليه نظرة الاعتبار والتجويد ، وربما عدوه من قبيل المخمسات ، وقد يحلون ذلك الموشح محل الاعتبار ولو كان طبق الوزن القديم اذا كانت اقفاله وابياته مختلفة القوافي ، فانه يخرج عن المخمسات ويعتبر موشحاً أصيلاً كالموشح المشهور :

ايها الساقي اليك المشتكى قد دعوناك وان لم تسمع

نديم همت في غرته
وشرب الراح من راحته
كلما استيقظ من سكرته

جذب الزق اليه واتكا وسقاني اربعاً في اربع

ويسمون أشباه هذا الموشح بالموشح الشعري اذ ينطبق كل الانطباق على بحر (الرمل) ، أحد البحور العريضية المعروفة ولا يخرجه عن هذا البحر حركة ولا كلمة .

وأما القسم الثاني فهو ما التزمت فيه الأوزان الشعرية ولكن تخللته كلمة أو حركة أخرجته عن أن يكون طبق تلك الأوزان كقول الوشاح :

صبرت والصبر شيمة العاني ولم اقل للمطيل هجراني معذبي كفاني

فهذا من (المنسرح) لولا قوله : (معذبي كفاني) فانهما أخرجتا الموشح عن المنسرح ، ويسمى أشباه هذا الموشح بالموشح الشعري الذي أخرجته كلمة عن أصله ؛ ومثله :

ياويح صبي الى البرق (ي) له نظر وفي البكاء مع الورق (ي) له وطر

فهذا من (البسيط) ، ولكن التزمت في الوسط قافية متحركة

بالكسر ، وتكلف الوشاح لها الى آخر الموشح .

ولو عدت تقرأ البيت مع مد حركة الكسر (آخر القاف) وأشباعها حتى تصبح ياء لوجدت ان البيت لم يخرج عن البسيط فهو موشح شعري أخرجته الحركة عن أصله .

هذان هما القسمان من الموشحات الشعرية التي تنطبق على الأوزان القديمة ، ونلاحظ في هذا المقام أن الوشاحين كانوا يعتمدون في الموشحات الشعرية على الابحر الخفيفة أو القليلة الاستعمال كالرمل والمنسرح والمضارع والمقتضب والمجتث .

وهناك ضرب ثانٍ للموشحات وهو ما لا وزن له من أوزان الشعر القديم ولا المام له بها ، وهو الأكثر عدداً في الموشحات ، البعيد حصراً في الأوزان .

وهذا الضرب لا يعرف إلا بالتلحين ، ولا يعلم صحيحه من مكسوره إلا في الغناء به على الأرغن ، وهو الأصل ، أو على غير الأرغن ، وهو مستعار .

وكان ابن سناء الملك قد حاول أن يضع لهذه الموشحات المتحررة من الأوزان القديمة ضوابط وأوزاناً خاصة ، فاعجزه ذلك ، وجاء أخيراً المستشرق الألماني (هارتمان) فحاول ارجاع تلك الأوزان إلى ستة وأربعين ومائة وزن او بحر ، مشتق من البحور أو الأوزان العربية المعروفة من قبل ، ولكن ذلك كان من قبيل التكلف اولاً ، ثم انه لم يستطع أن يحصر كل الموشحات المعروفة ضمن نطاق من الأوزان المقررة ، إذ بقي كثير من الموشحات لا تخضع للاوزان التي أوجدها ، والسبب في ذلك كونها في الأصل متعلقة بالتلحين والغناء كما مر ، فتجد الأبيات في بعض الأحيان على أوزان الاقفال ومن ابحرها ، وتجد في بعض الأحيان الاخرى تبايناً بين أوزان الأقفال وأوزان الابيات ، بسبب ما تقتضيه صناعة الغناء والالحان مما كان يعرف في ايام ازدهار التواشيح ، فصنعة الغناء إذن هي الميزان الذي توزن به الموشحات المضطربة الاوزان المختلفة الالحان ، وكان اللحن الموسيقي وحده هو الذي يعدل من اضطراب الموشح ، كما كان

الذوق الفني وحده هو الذي يميز بين الصحيح والسقيم ، ومن هنا تتبين ان من العمل الذي لا يجدي ان نستقصي الاوزان ونحصرها في هذا الفن ، وان نحاول اقامة أوزان مقررة للنظم في الموشحات ؛ هذا ولا بد من الاشارة هنا الى انتفاع فريق من الوشاحين من بعض الاوزان المستحدثة والمشتقة من الاوزان القديمة ، ولنذكر هنا المحاولات في ايجاد اوزان جديدة كالمستطيل المأخوذ من الطويل والذي وزنه (مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن) مرتين ، وكالممتد (فاعلن فاعلاتن فاعلن فاعلاتن) مرتين ، وهو عكس المديد ، وكالمتئد ووزنه (فاعلاتن مستفعلن) مرتين ، وكالمنسرد ووزنه (مفاعيلن مفاعيلن فاعلاتن) مرتين ، وكالمطرد ووزنه (فاعلاتن مفاعيلن مفاعيلن) مرتين .

فكان من هذه الابحر الجديدة مع الابحر القديمة المهملة أو المستعملة ، ثروة عروضية للموشح فضلاً عما كان يُعتمد عليه في صنعة الغناء من وزن ايقاعي .

خصائص الموشح الفنية

اغراض الموشح

تناول الموشح جميع أغراض الشعر من غزل ووصف ومديح ورثاء ، وهجاء ، ومجون ، وزهد ، وسمّي ما كان للزهد خاصة باسم (المكفّر) ، وجرت العادة في هذا النوع من الموشحات ألاّ يعمل إلا « على وزن موشح معروف ، وعلى قوافي أقفاله ، وان يختم بخرجة ذلك الموشح ليدل على انه مكفِّره ومستقيل ربه عن شاعره ومستغفره » كما يقول ابن سناء الملك ص ٣٨ .

وشاع نظم الموشح في الفنون والأغراض المختلفة وتجاوز فيه الوشاحون الغاية من اللطف « فاستظرفه الناس — كما قال ابن خلدون ص ٥٤٢ — جملةً ، الخاصة والكافة ، لسهولة تناوله وقرب طريقته » .

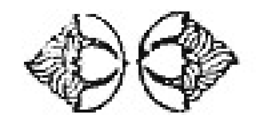
على أن هذه السهولة قد خرجت بالموشحات عن النظم المتين الرصين ، واللغة الجزلة القوية ، مما عرف به الشعر العربي

أيام ازدهاره ، وأخذت اللغة الادبية في الموشحات ترتدي طابع اللين والرقة حتى بلغت في بعضها مبلغ الركاكة والهلهلة ، بل مبلغ الاعتماد على العامية الهزيلة واللحن المغتفر المطلوب ، وتلك غاية لا تحمد ، وإن كانت الغاية من الموشحات قبل كل شيء استجلاء الطرب ، وإمتاع القلوب .

وشحنت الموشحات بانواع الخيال المرح ، فكثرت الاستعارات والمجازات والتشابيه والكنايات والمحسنات اللفظية والمعنوية كالتورية والجناس وغيرهما .

وغنيت الموشحات بالألفاظ الموسيقية العذبة التي تسحر عيناها ، اكثر مما تؤثر معناها ، والتي تطرب برقتها ، أكثر مما تعجب بصحتها ، فقد كان اللفظ المطرب هو المقصود ، وإذا توالت الجمل على تراخ في المعاني وعدم ترابط بين أجزائها فان ذلك لم يكن عيباً ما دامت فكرة التغني هي السائدة ، وما دام الايقاع الحسن هو المطلوب ، ولذلك تقف عند بعض الموشحات وقفة من لا يجد بين المعاني وشائج وثيقة

تربط بعضها إلى بعض ربطاً محكماً ، لان التسلسل المنطقي في العبارات ، والتتابع الفكري في المعاني ، لايقصدان بمقدار ما يقصد حسن توالي الكلمات ، وجمال جرسها الموسيقي ، وعذوبة وقعها في النفس والأذن .



تألق الموشح

ونشأة الزجل

لا ريب في أن تعدد الأوزان واختلاف القوافي ، والاعتماد على الألحان ، والضرب على الآلات ، والجنوح الى المعاني الطريفة والأفكار الغريبة ، كل ذلك كان السبيل إلى اداء الغرض الذي ترمي اليه الموشحات ، من اشاعة الطرب في النفوس وإدخال اللذة إلى القلوب ، وهذا سر رواج فن التوشيح في الاندلس ، بلد الهوى اللعوب ، والنعمة الوارفة ، ومنه انتقل إلى بلاد المغرب ، وعنهما أخذ المشرق هذا الفن البديع ، ولكنه لم يلحق رجال الاندلس السابقين اليه ، وليس معنى هذا ان المشرق لم يجلِّ في هذا المضمار ، ولا كان لشعرائه من التجويد فيه نصيب ؛ وهذا ابن سناء الملك المصري في دار الطراز ، يعقب على موشحات الاندلسيين بموشحات من نظمه ، وفيها ما هو من الغرر في هذا الفن ، فكأنما كان يتحدى المتقدمين بما جاء به ، رغم إظهاره للتواضع في مقدمة

كتابه، واعتذاره بانه لم يأخذ هذا الفن من منبعه ، ويقول ابن خلدون عن إحدى موشحات ابن سناء الملك ، أنها اشتهرت شرقاً وغرباً، وهي التي يقول في مطلعها تمهيداً :

يا حبيبي ارفع حجاب النورْ   عن   العذارْ
تنظر المسك على الكافورْ   في   جلنار

ثم يبدأ بالأقفال والأبيات فيقول :

كللي . يا سحب تيجان الربى   بالحلى
واجعلي . سوارها منعطف   الجدول

يا سما . فيك وفي الأرض نجومْ وما
كلما . أخفيتِ نجماً أظهرتْ انجماً
وهي ما . تهطل الا بالكلى والدما

فاهطلي . على قطوف الكرم كي تمتلي
وانقلي . للدن طعم الشهد والقرنفل

تنعقدْ . كالكوكب الدريْ المرتصدْ
يعتقد . فيها المجوسيُّ بما يعتقد
فانتقد . يا ساقيَ الراح بها واعتمد

واملَ لي . حتى تراني عنك في معزل
فاملِ لِ . فالراح كالعشق ان يزد يقتل

لا الیمْ . في شرب صهبا وفي عشق ريمْ
فالنعيم عيش جديد ومدام قديمْ
لا اهيم . الا بهذين فقم يا نديم
واجل لي . من أكؤس خيرت من فوق
الدّلي . من نكهة العنبر والمندل

(المقدمة ٥٤٨ والمستطرف ٢٧٨/٢ وازهار الرياض ٢١٦/٢)

وهكذا نجد فن التوشيح ينتقل من المغرب الى المشرق ويخرج من أفق المغنيين وأهل اللهو والطرب ، إلى آفاق رجال العلم وشيوخ الأدب ، ثم يستفيض بين الناس ، وينحدر إلى العامية بعد ان كان يأخذ منها الطرفة والملحة ، وإذا هو شيء جديد ، وفن عامي اسمه (الزجل) .

يقول ابن خلدون : المقدمة ٥٤٨ والازهار ٢١٧/٢

« ولما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس ، وأخذ به الجمهور لسلاسته ، وتنميق كلامه ، وترصيع أجزائه ، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ، ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية ، من غير أن يلتزموا فيها اعرابا ، واستحدثوا فنا

سموه (الزجل) والتزموا النظم فيه على مناحيهم الى هذا العهد ، فجاءوا فيه بالغرائب، واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة».

فالموشحات إذن هي التي أغرت العامة بان ينسجوا على منوالها ، ولكن بطريقتهم الخاصة ، فأدى الأمر إلى الانحدار باللغة ؛ ومن أجل ذلك قال بعضهم عن فن الموشح : إنه كان ذا أثر سيء في الأدب .

والحقيقة ان فن الموشحات لم يكن صاحب الأثر السيء في الأدب ، لأن الشعب العربي نفسه ، كان يسير نحو العجمة ، بسبب كثرة الاختلاط والامتزاج بالاعاجم في المغرب والمشرق ، وكان العلماء يجأرون بالشكوى من استفحال العجمة ، وكان (الزجل) وغيره صورة عن الطبائع الشاعرة التي لا تستطيع الانصاح عن شعورها بالكلام الفصيح ، فن غير الحق ان نحمل فن التوشيح جريرة المبالغة في الانحدار الى هاوية العجمة ، لان فن التوشيح نفسه سقط في هذه الهوة حين قالوا بوجوب

تضمنه الكلام العامي والسوقي ، وجوب نأيه بنفسه عن القواعد المرعية في صحة الكلام .

وإذا لم يكن الموشح مظهراً من الانحدار في الشعر ، فهو ليس مظهراً لأسمى ما بلغه الشعر من الرقي أيضاً ، لأن الروائع التي خلفها المخلدون في الأدب كأبي تمام والبحتري وأبي الطيب ، وغيرهم كثير ، ليست في حكم التقدير والاعتبار باقل من الموشح ، وعندنا انها أروع وابدع وأبرع .

وهنا لا بد من الاقرار بأن الموشح ثمرة من ثمرات الفكر الشاعر ، والعاطفة المتوقدة ، وصورة من صور الأدب ، ومظهر من مظاهر الحياه الاجتماعيـة ، ومن الجور على أنفسنا وعلى الأدب أن نقرر أن الشعر ارتقى صعداً ، أو انحدر صبباً ، فكان الموشح ؛ انه فن من فنون الشعر ، لم يحاول أن يقهر القصيدة العربية فيفنيها لتبقى له مظاهر الابداع ، ولا حاولت القصيدة أن تفنيه لتظل خالدة وحدها .

لقد سارت القصيدة العربية باوزانها وأغراضها الى يوم الناس

هذا، على ما يعرف عنها، ولكن نبت على جذعها فرع تعهده من تعهد، وطعّم بما طعّم فكانت له ثمرة غير الأصل، فيها لذة ومتعة، ولها من الأم الغذاء والمستند، ولكنها غير الثمرة الأصلية على كل حال، طعماً وشكلاً ولوناً.

وقد استطاب الناس هذه الثمرة الجديدة في الأدب والغناء وأولعوا بها، واحتفظوا بروائعها، وما يزال الناس في المشرق والمغرب العربيين يذكرون (الموشحات الاندلسية) و (النوبات الاندلسية) كما تذكر الروائع من موسيقى الغرب وآدابه، ولعل تعلق الناس بهذا اللون من الأدب والغناء، يرجع إلى رسيس الحنين إلى الأندلس، وتهفو القلوب للمجد الضائع والفردوس المفقود؛ هذا بالاضافة إلى ما في نظم الموشحات وما في ألحانها من عذوبة وروعة؛ وإلاّ فلِمَ لا تتردد كلمة (الأندلس) حتى يشعر العربي والمسلم بجو من السحر الأخاذ والعبق الكريم؟ لِمَ يحرصون على أن يحتفظوا بهذه الصفة (الاندلسية) لطائفة من الأغاني والألحان حين يقولون (نوبة أو موشحة أندلسية)

ولم يطلق عليها المغرب العربي إلى اليوم هذا الاسم (كلام غرناطة)[1] لو لم يكن الى جانب المتعة الفنيـة ، ذكرى نفسية تكمن في أعماق النفوس العربية والمسلمة ؟

ان فن الموشح الذي كان صنو الغناء، والذي ازدهر بازدهار الموسيقى العربية منذ حوالى ثمانمائة عام، استطاع أن يحمل في كيانه الخاص ، عنصر الخلود والروعة ، فأعجب الأفكار، وأطرب النفوس ، وخلب الافئدة ، وتناقلته الايام كاحسن ما تتناقل من الارث الحبيب .

---

(١) المستشرق هنري بيرس في كتابه (الشعر الاندلسي) بالافرنسية ص ٢٩٣

السابقون الى التوشيح

رأيت أن العبقرية الاولى التي تفتحت عن فن الموشح ، كانت عبقرية أندلسية خالصة ، غرست للناس غرساً تعهدته الألحان ، وسهرت عليه الأهواء ، فنما وزكا ، وآتى أكله يانعاً شهياً .

وقد زعم قوم ان السابق الى الموشح شاعر عباسي مشهور هو ابن المعتز (المتوفى سنة ٢٩٦) ونسبوا اليه الموشح المعروف :

أيها الساقي اليك المشتكى   قد دعوناك وإن لم تسمع

والصحيح الثابت أن هذا الموشح أندلسي ، نسبه صاحب طبقات الأطباء إلى الحكيم أبي بكر بن زُهْر[1] الوشاح المشهور . أضف إلى هذا أننا لا نعرف ابن المعتز وشاحاً ، او ممارساً لهذه الصنعة الشعرية الجديدة في جميع التراجم التي تحدثت عنه

---

(١) ورد في مقدمة ابن خلدون اسم (زُهر) مصحفاً هكذا (زُهير) وهو خطأ مطبعي ، ووقع ذلك ايضاً في كتاب العذارى المائسات في الأزجال والموشحات ، لجامعة فيليب قعدان الخازن .

ولا يضم ديوانه من الموشحات غير ذلك الموشح ، مع أنه كان صاحب لهو وطرب ومتعة ، والموشحات تناسب من كان في طباعه وأخلاقه ، فلو كان المخترع الاول الموشحات ، أو كان له من هذا الفن نصيب ، لوجد في مجاله لرحب انطلاقاً لعواطفة وشاعريته وأهوائه ؛

هذا إلى ان مؤرخي الأدب القدامى يذكرون عن ابن سناء الملك ، المتوفى في أوائل القرن السابع ، انه أول من أدخل هذا الفن إلى المشرق ، وبذلك يظل فضل السبق إلى الموشحات مقصوراً على الأندلسيين ؛ وقد ذهب ابن بسام في ذخيرته (١/٢) وغيره من الباحثين إلى ان أول من وضع أوزان هذه الموشحات في أفق الأندلس ، واخترع طريقتها في نهاية القرن الثالث هو محمد بن محمود القبري الضرير من مدينة قبرة في الاندلس (او هو محمد بن محمود ... كما في أزهار الرياض ٢/٢٥٣ وغيره)

وقالوا إنه كان يصنعها على أشطار الاشعار ، غير ان أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة ، يأخذ اللفظ العامي والعجمي

ويسميه المركز (أي كلمة الخرجة) ويضع عليه الموشحة دون تضمين لها ولا اغصان (الذخيرة ٢/١)

وذكر ابن خلدون ان المخترع لهذا الفن في جزيرة الاندلس مقدم بن معافى القبري (لا مقدم بن معافر الفريري كما ورد في المقدمة مصحفاً ومحرفاً، وعنه نقل بعض الأدباء) وهو من شعراء الأمير عبدالله بن محمد المرواني الذي امتد حكمه من ٢٧٥ الى ٣٠٠هـ وعن مقدم هذا أخذ ابن عبد ربه صاحب كتاب (العقد) ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر، وكسدت موشحاتهما، فكان اول من برع في هذا الشأن بعدهما عُبادة القزاز، شاعر المعتصم ابن صمادح صاحب المرية، وقد ذكر الأعلم البطليوسي انه سمع ابا بكر بن زُهر يقول: «كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز»

(المقدمة ٥٤٢ و ازهار الرياض ٢/٢٠٧)

وكذلك حكى الكاتب ابو الحسن علي بن سعيد العنسي في كتابه «المقتطف من أزاهر الطُرَف» ان الحجاريّ ذكر في كتابه «المُسهِب في غرائب المغرب» ان المخترع للموشحات

بجزيرة الأندلس هو المقدم بن معافى القبرى من شعراء الامير عبدالله المرواني ، وأخذ عنه ابو عمر بن عبد ربه صاحب (العقد) ثم غلبهما عليها المتأخرون ، وأول من برع فيها عبادة القزاز شاعر المعتصم صاحب المرية . (ازهار الرياض ٢/٢٥٣)

وقال ابن بسام في الذخيرة (٢/٢) « وقيل إن ابن عبد ربه صاحب العقد اول من سبق الى هذا النوع من الموشحات عندنا ، ثم نشأ يوسف بن هارون الرمادي فكان اول من أكثر فيها من التضمين في المراكيز » ثم نشأ ابو بكر عبادة بن ماء السماء (المتوفى سنة ٤٢١ هـ) ، فكملت على يديه الصنعة الجديدة ، ولم يظهر للسابقين الأولين ذكر مع المحدثين .

ومن هنا يتبين لك اضطراب القول في اول مخترع لهذا الفن ، شأن كل جديد من الامور ، وان محمد بن حمود (او محمود) القبري ، او المقدم بن معافى القبري ، كانا السابقين وتبعهما ابن عبد ربه ثم جاء المجودون من بعد ذلك .

فيمكن ان يقال اذن إن القرن الثالث الهجري هو اول

عهد ظهرت فيه الموشحات الابتدائية التي لم يستقم أمرها ، ولم ترسخ دعائمها ؛ وان القرن الرابع الهجري الذي بلغ فيه فن الغناء أوجه وغاية مجده ، هو العهد الذي ازدهرت فيه الموشحات الكاملة ، وان الوشاحين الذين جاءوا قبل القرن الرابع لم يبلغوا مبلغ المجودين في ذلك العصر الذهبي للموشح ، والسر في ذلك اعتماد الموشح على الأنغام والايقاع وشد الأوتار ، وما يلائم ذلك من حياة وادعة تنشد المتعة والطرب ، مما تهيأ كاملاً حوالى القرن الرابع .

وعلى هذا فيجب أن نلتمس التجويد في الموشحات منذ القرن الرابع الهجري وما يليه ، على أيدي القزاز وابن ماء السماء وغيرهما حتى إذا جاء القرن السادس الهجري وجدنا كتاباً يؤلفه ابن سناء الملك ويسميه دار الطراز يتحدث فيه عن صنعة الموشح ، وينقل الينا فيه كثيراً من الموشحات القديمة ، والموشحات التي نظمها هو نفسه ؛ وقد نشر هذا الكتاب الدكتور جودة الركابي وعني به عناية كبيرة ، فوقع في نحو خمسين ومائة صحيفة من القطع

الوسط والحرف الدقيق ، ويتألف في الأصل من مقدمة المؤلف تحدث فيها عن حد الموشحات ، وقواعد عروضها ، وما اصطلح عليه فيها ، وضرب لذلك الامثال ؛ ومن قسمين في الأول منهما بعض موشحات الاندلسيين والمغاربة ، وهي التي أخذ منها الأمثلة على القواعد المذكورة في المقدمة ، ويبلغ عددها اربعة وثلاثين موشحاً .

وفي القسم الثاني موشحات ابن سناء الملك نفسه ، مرتبة على نسق الموشحات المذكورة في القسم الاول ، ويبلغ عددها خمسة وثلاثين موشحاً .

ولعل مقدمة ابن سناء الملك أهم ما في الكتاب ، لأنه شرح فيها النظرية الفنية في عمل الموشحات ، والقواعد المرعية في هذا الفن ، ويكون بهذا أول من قام بتحديد اصول الموشح بصورة واضحة بينة ، وان كان الذين سبقوه الى الكلام على الموشحات قد أشاروا بعض الاشارات الى تلك الأصول ،

الا ان الوشاحين الاندلسيين لم يذكروا لنا بصورة جلية الاسس التي يجب أن يقوم عليها الموشح .

وتحدث المؤلف عن أوزان الموشحات واغراضها وعن تسمية الكتاب باسم (دار الطراز) وقد كان ينبغي أن يسميه بغير هذا ، كقانون الموشحات أو توشية التوشيح أو عقد الموشح أو غيره ، ولكنه لم يجد أشمل وأكمل من لفظ (دار الطراز) لأن معنى (الطراز) هو أجود الثياب المعلّمة المطرزة التي تعمل للسلطان ، ولأن معنى (الموشح) هو الثوب الموشى المطرز وعلى هذا تكون (دار الطراز) هي الدار التي يعمل فيها حريري الموشحات ومذهبها وتحفها وطرفها . فالكتاب هو تلك الدار وان لم يكن الدار فهو الجار ، كما يقول المؤلف .

ويعتذر — بأخلاق العالم المتواضع — ان كان في موشحاته مالا يبلغ مبلغ الموشحات الاندلسية الفائقة، لانه لم يولد في الاندلس، ولا نشأ في المغرب ، ولا سكن اشبيلية ، ولا ارسى على مرسية ، ولا عبر على مكناسة ، ولا سمع الأرغن ، ولا لحق دولة المعتمد

وابن صمادح ، ولا لاقي كبار الوشاحين أمثال الأعمى وابن بقي وعبادة والحصري ، ولا أخذ عن شيخ متقدم في هذا العلم ، ولا وقع اليه مصنف في هذا الفن؛ ثم اورد الموشحات المختارة واتبعها بموشحاته التي صنعها بنفسه .

والذي نلاحظه على ابن سناء الملك انه كان في بعض المواضع بعيداً عن الوضوح والطبع والسلاسة ، متأثراً بأسلوب عصره من حيث كثرة التأنق في المفردات والسجع ؛

وشيء آخر هو انه لم ينسب الموشحات التي أوردها الى أصحابها ، وهي من أفضل ما قيل في هذا الفن من قبل ، ومنها استمد المؤلف القواعد التي ذكرها كأصول مرعية في التوشيح ؛ وإهماله هذا لذكر أصحاب الموشحات اهمال لا يُرضي ، وكان على صديقنا الناشر أن يتلافاه حين رجع إلى المصادر المتعددة اثناء التحقيق والطبع ، وألمّ بأصحابها ، وقابل بين ماطبع من الموشحات وما كتب عنهـا من قبل ، وبين ما هو في نسخة المؤلف التي يحقق فيها ، ولكني أحسب ذلك شأن كل عمـل

انساني يذهل صاحبه عن بعض مايتعلق به ، رغم العناية الفائقة ؛
وشيء يسير آخر ، هو ترك الناشر شرح بعض الأفكار الواردة
في الموشحات ، مما يدق فهمه على الدارسين ويسهل ايضاحه
على المدرسين ، وكان من الخير لو استدرك هذا لانه لايعجزه .

وشيء ثالث هو ان قليلاً من التشكيل محرف لا تستقيم
معه بعض الكلمات ، وعسى أن يتلافى الناشر ذلك فيما بعد .

وأراني بعدُ مقدراً جهد صديقنا الناشر وبحسبه ان يضع
بين أيدي الناس كتاباً كان مفقوداً هو من أحسن المصادر
في فن التوشيح ، مطبوعاً أحسن طبع ، معنياً به خير عناية ،

ثم أن ابن سناء الملك ، وقد أراد أن يسطر بعض الأصول
والقواعد المرعية في هذا الفن ، لم يتوخ أن يذكر أسماء النابهين
من الوشاحين في الاندلس ، ولا أن ينوه بشأنهم ، وقد استدرك
الناشر ذلك ببعض التعريف بأولئك الوشاحين دون الاضافة ، كما
عرّف مؤلف الكتاب ، فاستحق الناشر على صنيعه وتعبه ، الجزيل
من الثناء .

عباقرة التوشيح

آلت الأندلس الى العرب الفاتحين سنة اثنتين وتسعين للهجرة ، وظلت تحكم من قبل الولاة حتى كان عهد بني أمية الجديد ، حين دخل عبد الرحمن بن معاوية الأندلس واستولى عليها سنة تسع وثلاثين ومائة ، واستمر الحكم والخلافة الأمويان في الأندلس حتى سنة ثمانٍ وعشرين وأربعمائة حيث قام ملك بني حمود ، ثم انقرض سنة ستين وأربعمائة ، وآل الأمر الى ملوك الطوائف في الأندلس ، وتفرق ذلك الملك في جماعات من الموالي والوزراء وكبار العرب والبربر : تغلب بعضهم على بعض ، حتى أعطوا الأتاوة لملوك الفرنجة ، ثم أنقذهم من الذل والفوضى يوسف بن تاشفين أمير المرابطين ، حين نزل الجزيرة الخضراء سنة تسع وسبعين واربعمائة ، ولم يزل يستولي على البلاد حتى تم له ما أراد ، وخاطب الخليفة العباسي في بغداد فعقد له على المغرب والأندلس ، واستقر فيهما ملك المرابطين (الملثمين) حتى توفي سنة خمسمائة ، واستمر المرابطون

في الحكم حتى غلب الموحدون على بلاد المغرب سنة احدى وخمسين وخمسمائة ،واستولوا على الأندلس، وثارت الفتن ، وحكم ابن هود، ثم ثار جد بني الأحمر وبويع له سنة تسع وعشرين وستمائة ،وظلت الأمور في اضطراب ، والعدو يتقدم ويستولي على البلاد ، والقوم في نزاع ، يغدر بعضهم ببعض ، ويقتل بعضهم بعضاً ، حتى تغلب عدوهم على الجزيرة الخضراء وأخذها صلحاً سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ، ولم يزل الأمر في الأندلس بين أيدي ملوك تصرع ، وقواد تغدر ، وشعب ينحدر ، وزعماء تتآمر ، حتى تقلص الظل العربي وانكمش الاسلام ،فكانت الأندلس غنيمة الانحلال ، وضحية الأهواء ، سنة سبع وتسعين وثمانمائة .

وما كان لمثل هذا التاريخ الطويل الحافل ان يوجز في سطور ، لولا انا نريد أن نذكر القارئ الكريم بأطوار الحكم التي مرت على الأندلس ، والأزمان التي عاش فيها الوشاحون الذين سنتحدث عنهم ، اذ كان من حق الدراسة ان تمثل أزمانهم ،ولو على سبيل الايجاز ، لنتخيل تسلسلهم وتعاقبهم في الفن الذي شرحنا أصوله وفروعه ؛ واذا كان من العسر أن نأتي على جميع

الوشاحين : الأندلسيين والمغاربة والمشارقة بالترجمة والاستشهاد ، فلا أقل من الاشارة الى بعض المباقرة منهم ، أولي الشهرة والتأثير في نشأة هذا الفن وتطوره ؛ وها هم أولاء على تسلسل الأزمان [1] :

ابن عبد ربه

(٢٤٦ - ٣٢٨) هـ (٨٦٠ — ٩٤٠) م

ابو عمر احمد بن محمد بن عبد ربه ، الامام الأديب ، وصاحب (العقد) . من أهل قرطبة ، كان جده الأعلى (سالم) مولى لهشام بن عبد الرحمن بن معاوية .

---

(١) رجعت للتراجم والمنتخبات ، والدراسة عامة ، مراجع كثيرة اهمها: الخطط ، والاسلام والحضارة العربية لكرد علي . تاريخ الأندلس لأشباخ (الالماني) . الاوضاع الأسلامية لديمومبين (بالافرنسي) . الشعر الأندلسي لبيره س (بالافرنسي) . الأعلام للزركلي . مطمح الأنفس وقلائد العقيان للفتح بن خاقان . معجم الأدباء لياقوت . يتيمة الدهر للثعالبي . وفيات الأعيان لابن خلكان . المقدمة لابن خلدون . فوات الوفيات للصلاح الكتبي . نفح الطيب وازهار الرياض للمقري . الذخيرة لابن بسام . الاحاطة للسان الدين بن الخطيب . دار الطراز لابن سناء الملك . الشعر في العصر الأيوبي (بافرنسي) ومحاضرات في الادب الاندلسي للركابي المستطرف للأبشيهي . العقد لابن عبد ربه . الصبح للقلقشندي تقويم الجيمي الدمشقي . وكتب الأدب الحديثة في مصر والشام ولبنان للبستاني والحمصي والفاخوري وغيرهم

كان ابن عبد ربه شاعراً مشهوراً، وأديباً مذكوراً، وعالماً كثير المحفوظات والاطلاع على أخبار الأدباء، جمعها في العقد، وأبلغه العلم والأدب ما يشتهي من الغنى بعد الفقر. اذ كان في العلم ثقة، وفي الادب حجة، وفي الشعر غاية؛ استطارت شهرته في المشرق والمغرب ولقب (بمليح الأندلس)؛ قيل ان المتنبي كان في جامع عمرو بن العاص فجاءه أندلسي يريد ان يجتمع اليه، فقال له المتنبي: أنشدني لمليح الأندلس، فأنشده قول ابن عبد ربه:

يا لؤلؤاً يسبي العقول انيقا	ورشا بتقطيع القلوب رفيقا
ما ان رأيت ولا سمعت بمثله	دراً يعود من الحياء عقيقا
واذا نظرت الى محاسن وجهه	أبصرت وجهك في سناه غريقا
يا من تقطع خصره في رقةٍ	ما بال قلبك لا يكون رقيقا

فاستعاد المتنبي الأبيات وقال: «يا بن عبد ربه، لقد تأتيك العراق حبواً».

ولابن عبد ربه القصائد (الممحِّصات)، وهي قصائد ومقاطيع في المواعظ والزهد، نقض بها كل ما قاله في صباه من الغزل.

وكتابه (العقد) من أشهر كتب الأدب ، وله أراجيز في في تاريخ الخلفاء الراشدين ، وغيرهم ' وطبع من ديوانه خمس قصائد ، وأصيب بالفالج قبل وفاته بأيام .

يوسف بن هرون الرمادى

(... — ٤٠٣) هـ (... — ١٠١٢) م

ابو عمر يوسف الكندي الرمادي ، نسبةً الى رمادة وهي بلدة في المغرب ، كان أصله منها ،

شاعر أندلسي ، مولده ووفاته في قرطبة ، عالي الطبقة ، كثير الشعر ، سريع القول ، مشهور عند الخاصة والعامة هنالك لسلوكه في فنون المنظـوم مسالك تنفق عند الجميع ، اذ كان يحزن في الشعر ويسهل ، فاجمع القوم على تفضيله .

كان معاصراً لأبي الطيب المتنبي ، وكان كثير من شيوخ الأدب يقولون : « فتح الشعر بكندة وختم بكندة » يعنون بذلك امرأ القيس ، والمتنبي والرمادي .

لزم ابا علي القالي صاحب الأمالي حينما قصد الأندلس سنة ٣٣٠ وأخذ عنه وروى كتابه (النوادر) ومدحه بشعر جيد .

نسب اليه من الشعر في دولة الخلافة ما ألقاه في السجن طويلاً ، وأدرك الفتنة فخاض لجتها ، ولحقته فاقة لزمته وأنهكته حتى أهلكته ، وقد عمر طويلاً ، وخلف كثيراً من الشعر ، وكتاباً له في (الطير) ومن شعره :

بدرٌ بدا ، يحمل شمساً بدت وحدُّها في الحسن من حدِّه
تغربُ في فيه ولكنها من بعد ذا تطلع في خده

وله :

في اي جارحة اصون معذبي سلمت من التعذيب والتنكيل
ان قلت في بصري فثمّ مدامعي او قلت في كبدي فثمّ غليلي
وثلاث شيبات نزلن بمفرقي فعلمت ان نزولهن رحيلي
طلعت ثلاث في نزول ثلاثة واش ، ووجه مراقب ، وثقيل

ابن ماء السماء

(٠٠٠ — ٤٢٢) هـ (٠٠٠ — ١٠٣١) م

أبو بكر عبادة بن عبد الله بن محمد بن عبادة بن ماء السماء ، من ذرية سعد بن عُبادة الانصاري ، وقيل له ابن ماء السماء لجدّه الاول . كان عبادة رأس الشعراء ، منتجعاً بشعره ، بعيد

الهمة ، وهو الذي أقام عماد الموشحات وهذب ألفاظها وأوضاعها واشتهر بها اشتهاراً غلب عليه ، فكأنها لم تسمع الا منه .

ضاعت له مائة مثقال فاغتم عليها وكانت سبب وفاته في مالقة

وله شعر حسن منه قوله :

لا تشكونَّ اذا عثر ت الى خليطٍ سوء حالك
فيريك ألواناً من الـ إذلال لم تخطر ببالكْ
اياك ان تدري يمـ نك ما يدور على شمالكْ
واصبر على نوبِ الزما ن وانْ رمت بك في المهالك
والى الذي اغنى واقـ نى اضرعْ وسَلْه صلاح حالك

ابو القزاز (القرن الخامس)

ابو عبدالله محمد بن عُبادة المعروف بابن القزّاز ، (وعبادة القزاز أيضاً) شاعر المعتصم بن صمادح صاحب (المَريّة) المتوفى سنة ٤٨٤ هـ .

من مشهوري الشعراء والأدباء ، وأكثر ماذكر اسمه وحفظ نظمه في أوزان الموشحات ، وقد برع في نظمها ، وشهد له المتقدمون بالتفوق والتقدم ؛ فقال ابو بكر بن زُهْر : كل الوشاحين عيالٌ على عُبادة القزاز ؛ وكان فيما اتفق له من ذلك قوله :

بدرُ تِمّ	شمسُ ضحى	غصن نقا	مسكُ شم
ما اتمّ	ما اوضحا	ما اورقا	ما انم
لا جرمْ	مَنْ لمحـا	قد عشقا	قد حُرِم

وزعموا انه لم يسبق عبادة وشاحٌ من معاصريه الذين كانوا في زمان ملوك الطوائف ، وجاء مصلّياً خلفه منهم ابن ارفَع رأسه شاعر المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة .

ابو الحسن الحصري

(٠٠٠ ـ ٤٨٨) ه (٠٠٠ — ١٠٩٥) م

علي بن عبد الغني الفهـري المُقرِيء الضرير ، ولد في القيروان وتوفي في طنجة ، قال عنه ابن بسام : « كان بحر براعة ورأس صناعة ، وزعيم جماعة ، طرأ على جزيرة الاندلس في منتصف المائة الخامسة بعد خراب وطنه من القيروان ؛ فتهادته الملوك وتنافسوا فيه ».

كان ضيق العطن ، يتلفت الى الهجاء تلفت الظمآن الى الماء .

وكان عالماً بالقراءات وطرقهـا ، وأقرأ الناس للقرآن الكريم بسبتة وغيرها ، وله قصيدة نظمهـا في قراءات نافع ، وديوان

شعر جيد ، ومن أشهر شعره القصيدة السائرة التي غُني بها كثيراً:

يا ليل الصب متى غده   اقيام الساعة موعده

رقد السمار فارقه   اسف للبين يردده

وقد عارضها كثير من الشعراء ، فمن القدماء الذين عارضوها ابو الفضائل القمراوي فقال من قصيدته :

قد ملّ مريضك عودُه   ورثى لأسيرك حسده

لم يبق جفاك سوى نفس   زفرات الشوق تصعده

وقد طبعت المعارضات الحديثة في رسالة صغيرة عنوانها (معارضات يا ليل الصب) وليس فيها كل المعارضات الحديثة ولا القديمة .

وكان المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية — ويسميها الاندلسيون حمص أيضاً — بعث الى أبي الحسن الحصري بخمسمائة دينار ليحضر اليه من القيروان ، وكان الروم اذ ذاك مسيطرين على البحر فكتب الى المعتمد :

امرتني بركوب البحر اقطعه   غيري ، لك الخير ، فاخصصه بذا الداء

ما انت نوح فتنجيني سفينته   ولا المسيح انا أمشي على الماء

ودخل الاندلس بعد ذلك ومدح المعتمد ، ثم توفي في طنجة .

وابو الحسن هـذا ابن خالة ابي اسحق الحصري صاحب
زهر الآداب المتوفى في القيروان سنة ٤١٣ ﻫ على رأي
ابن خلكان ، أو سنه ٤٥٣ على رأيِ ابن بسام

ابن بقي

(٠٠ — ٥٤٠) ﻫ (٠٠ — ١١٤٥) م

ابو بكر بن يحيى بن عبدالرحمن بن بقي الاندلسي القرطبي :
شاعر ذو روائع في الشعر ، اشتهر في اجادة الموشحات ،
وتنقل في كثير من البلاد التماساً الرزق ، وكان الحرمان الزم
له من ظله ، حتى وجد من أقطعه جانباً من العيش فمدحه .
وأثنى عليه المترجمون له ، وعدوه من محاسن دولة الملثمين وذكروا
له كثيراً من جيد الشعر كقوله :

يا افتك الناس الحاظاً واطيبهم   ريقاً متى كان فيك الصابُ والعسلْ
في صحن خدك وهي الشمس طالعةٌ   وردٌ يزيدك فيه الراح والخجل
ايمان حبك في قلبي يجدده   من خدك الكتب ومن لحظك الرسل

وحلبة الشعراء في دولة الملثمين تأتي بعد من كانوا في عهد

ملوك الطوائف كالقزاز وابن ارفع رأسه ، ويعتبر ابن بقي والأعمى التطيلي أسبق من جاء في عهد الملثمين .

زعموا ان أبا بكر بن زُهر قال : ما حسدت قط وشاحاً على قول الا ابن بقيٍ حين وقع له قوله :

اما ترى احمدْ في مجده العالي لا يلحقْ
اطلعه المغربْ فأرنا مثله يا مشرقْ

ومن أجمل ما وقع له من الموشحات قوله :

عبث الشوق بقلبي فاشتكى ألمَ الوجد ، فلبتْ ادمعي
ايها الناس فؤادي شغِفُ
وهو من بغي الهوى لا يُنصَفُ
كم اداريه ودمعي يَكِفُ
ايها الشادنُ من علمكا بسهام اللحظ قتل السَبُعِ
بدرُ تمٍ تحت ليل اغطشِ
طالعٌ في غصن بانٍ منتشي
اهيفُ القدِّ بخدٍّ ارقشِ
ساحرُ الطرف وكم قد فتكا بقلوبٍ دُرّعت بالاضلع
وانثنى يهتز من سكر الصِّبا
اي رئم رمته فاجتنبا
كقضيب هزّه ريح الصبا

قالت هب لي يا حبيبي وصلكا واطّرح اسباب هجري ودع

قال خدّي زهره مذ أُنّفا

جرّد الطرفُ حساماً مُرهفا

حذراً منه بالاّ يقطفا

ان من رام جناه هلكا فأزل عنك اماني الطمع

ذاب قلبي من هوى ظبيٍ غريرْ

وجهه في الدّجن صبح مستنير

وفؤادي بين كفيه اسيرْ

لم اجد للصبر عنه مسلكا فانتصاري بانسكاب الادمع

ويُخَيل اليّ ان هذا الموشح هو الاصل الذي عارضه ابن زُهر في موشحه المشهور الذي يقول في مطلعه :

ايها الساقي اليك المشتكى قد دعوناك وان لم تسمع

الاعمى التطيلي (النصف الاول من القرن السادس)

ابو جعفر بن هريره ، ابو بكر التُطَيْلي (والتليطلي والطُلَيْطلي) الوشاح المشهور ، من شعراء الاندلس في دولة الملثمين (المرابطين) اوائل القرن السادس للهجرة ، سكن مرسية ومات في مقتبل العمر

وضاع كثير من أخباره ، وبقيت شهرته ، وآثار عبقريته ،
كان كثير الوقوع في الناس ، قيل له مرة : يا أبا بكر ، كم تقع في
الناس ! فقال : أنا أعمى وهم لايبرحون حُفَراً ، فما عذري في
وقوعي فيهم ، فقال السائل : « والله لا كنت قط حفرة لك »
وجعل يواليه بره ورفده .

قال عنه الفتح في القلائد : « له ذهن يكشف الغامض الذي
يخفى ، وجاء بالنادر الذي أعجز ، ونظم أخبار الأمم المفترقة في
لبة القريض ، وأسمعها أطرب من نغم معبد والغريض ، وكان
بالأندلس سراً للاحسان الا انه اختُصر حين احتُضِر ، واعتُبط
عندما استُبشر به واغتُبِط » .

وذكر ابن خلدون : ان جماعة من الوشاحين اجتمعوا في مجلس
في اشبيلية ، وكان كل واحد منهم اصطنع موشحةً وتأنق فيها ،
فتقدم الأعمى التطيلي للانشاد وافتتح موشحته بقوله :

ضاحك عن جُمانْ . سافر عن بدر . ضاق عنه الزمان . وحواه صدري

آه مما اجدْ   شفني ما أجدُ
قام بي وقعد   باطشٌ متئد

كما قلت قد   قال لي أين قدُ

وانثني خوط بان . ذا مهزِّ نضرِ . عابثته يدان . للصبا والقطر

فلما سمع الوشاحون قوله خرّق ابن بقي موشحته ، وتبعه الباقون .

الحكيم ابو بكر بن باجة (القرن السادس)

صاحب التلاحين المشهورة المعروفة ، عاصر ابن بقي والأعمى الطليطلي ، وكان مقدماً عند ابن تيفلُويت صاحب سرقسطة ، ألقى ابو بكر ذات يوم على بعض القينات موشحته في المديح التي اولها :

جرر الذيل ايما جرِ   وصل الشكر منك بالشكرِ

وختمها بقوله :

عقد الله راية النصرِ   لامير العلا ابي بكرِ

فطرب ابن تيفلويت وصاح : واطرباه ، وشق ثيابه ، وقال ما أحسنَ ما بدأت به وما ختمت ! وحلف بالايمان المغلظة الا يمشي ابن باجة الى داره الا على الذهب ، فخاف الحكيم سوء العاقبة ، فاحتال بان جعل في نعله ذهباً ومشى عليه .

ابو بكر بن زُهر

(٥٠٧ – ٥٩٥) هـ (١١١٣ – ١١٩٩) م

ابو بكر محمد بن أبي مروان عبد الملك بن أبي العلاء زُهر ابن أبي مروان ... بن زهر الايادي الاندلسي الاشبيلي .

كان من أهل بيت كلهم علماء رؤساء ، وحكماء وزراء ، متقدمون عند الملوك ، وكان ابو بكر متمكناً من شعر العرب ، عالي المرتبة ، كثير الأموال ، مشرفاً على جميع أقوال أهل الطب ، وله في كتاب جالينوس (حيلة البرء) :

(حيلة البرء) صنفت لعليل … يترجى الحياة او لعليله

فاذا جاءت المنية قالت … حيلة البرء : ليس في البرء حيله

وكان يعالج الناس في الطب ، وأوصى ان يكتب على قبره :

تأمل بحقك يا واقفاً … ولاحظ مكانا دفعنا اليه

تراب الضريح على وجنتي … كأني لم امش يوما عليه

اداوي الانام حذار المنون … وها انا قد صرت رهنا لديه

وانفرد بالتقدم في الموشحات ، في زمانه ، وقد شرقت موشحاته وغربت ، وكان جده ابو العلاء زهر وزير الدهر وفيلسوف العصر وحكيمه ، وتوفي سنة ٥٢٥ بقرطبة .

وكان عبد الملك قد ارتحل الى الشرق وطبب زماناً طويلاً ، وتولى رياسة الطب في بغداد ، ثم في مصر ، ثم في القيروان وبذّ اهل زمانه .

وكان جد جده محمد بن مروان عالماً حافظاً للادب فقيهاً متفنناً جواداً .

قيل لابي بكر : لو قيل لك : ما أبدعُ ما وقع لك في التوشيح ؟ فقال : كنت أقول :

ما للمولّهْ	من سكره لا يفيقْ	ياله سكرانْ
من غير خمر	ما للكئيب المشوقْ	يندب الاوطانْ
هل تستعادْ	أيامنا بالخليجْ	ولياليناْ
او يستفادْ	من النسيم الأريجْ	مسكُ دارينْ
وان يكادْ	حسن المكان البهيجْ	ان يحيينا
نهر أظلّهْ	دوحٌ عليه أنيقْ	مورق فينانْ
والماء يجري	وعائم وغريقْ	من جنى الريحانْ

ابن سناء الملك

(٥٥٠ — ٦٠٨) هـ (١١٥٥ — ١٢١١) م

هبة الله بن القاضي الرشيد جعفر بن سناء الملك ، السعدي ؛ ابو القاسم ، ويعرف بالقاضي السعيد ، شاعر ذو ثقافة عالية أحلته منصب القضاء كأبيه ، مصري المولد والوفاة . كان نبيلاً وافر الفضل ، بارعاً في علوم اللغة والدين ، رحب النادي ، جيد الشعر ، بديع الانشاء متفنناً فيه ، مكثراً للتأنق في الكتابة ، كتب في ديوان الانشاء بمصر مدة ، على سعة في العيش ووفرة من الغنى .

وكان ولوعاً بالموشح ، فاستقصى أخباره وأسسه ، وجمع طائفةً من أحسن ما عرف منه في كتابه (دار الطراز) وأودعه موشحاته التي نظمها هو نفسه .

وكانت له صلات أدبية وثيقة بالقاضي الفاضل صاحب الطريقة المؤنقة في الكتابة ، وبغيره من أدباء العصر وشعرائه ، يطارحهم الشعر ويواصلهم بالأدب .

وكان معجباً بصلاح الدين الايوبي،مدحه مديح اكبار واحترام.

له كتاب (فصوص الفصول) (مخطوط) جمع فيه طائفة من إنشاء كتاب عصره ، ولا سيما القاضي الفاضل،وكتاب آخر اسمه (روح الحيوان) (مخطوط) اختصر فيه كتاب الحيوان للجاحظ .

استفاضت شهرته في الشرق والغرب ، وبخاصة في موشحه الذي يقول فيه :

(١)يا حبيبي ارفع حجاب النور   عن العذار
تنظر المسك على الكافور   في جلّنار

ابراهيم بن سهل

(٦٠٥ — ٦٤٩) هـ (١٢٠٨ — ١٢٥١) م

من أهل اشبيلية ، شاعر غزل ، كان يهودياً فأسلم وتلقى الادب وأجاد في الشعر ، سكن سبتة Ceuta فى المغرب الاقصى ، وغرق مع واليها اذ كانا في زورق انقلب بهما فهلكا .

(١) ورد المطلع بدون اداة نداء في بعض المصادر (حبيبي ارفع .)، ووجود الاداة يناسب وزن البيت الثاني (تنظر ...) ولذلك اثبتناها كما اثبتها بعضهم .

له ديوان شعر صغير . ومن أشهر شعره موشحه الذي عارضه الكثير من الشعراء ويبدؤه بقوله :

هل درى ظبي الحمى ان قد حمى ... قلب صب حله عن مكنس
فهو في حر وخفق مثلما ... لعبت ريح الصبا بالقبس

يا بدوراً اشرقت يوم النوى ... غُرراً تسلك في نهج الغُرَرْ
ما لنفسي في الهوى ذنب سوى ... منكمُ الحسنُ ومن عيني النظر
اجتني اللذات مكلوم الجوى ... والتذاذي من حبيبي بالفكر

كلما أشكوه وجدي بسما ... كالربا بالعارض المنبجس
اذ يقيم القطر فيه مأتما ... وهي من بهجتها في عرُس

أيها السائل عن جرمي لديهْ ... لي جزاء المذنب وهو المذنبْ
اخذت شمس الضحى من وجنتيه ... مشرقاً للشمس فيه مغرب
ذهب الدمع باشواقي اليه ... وله خد بلحظي مذهب

لسان الدين بن الخطيب

(٧١٣ — ٧٧٦) هـ (١٣١٣ — ١٣٧٤) م

محمد بن عبدالله بن سعيد اللوشي الأصل ، وزير مؤرخ ، وأديب نبيل ؛ ولد بغرناطة ، واستوزره سلطانها ابو الحجاج يوسف سنة ٧٣٣ ثم ابنه السلطان محمد من بعده ؛ نسبه بعض حاسديه

الى مذهب الفلاسفة ورمي بالزندقة، وأوغر عليه قلب السلطان محمد بن يوسف فاعتقله بفاس، فطرقوا عليه السجن ليلا وخنقوه

كان يلقب بذي العُمرين لكثرة أرَقه واشتغاله بالتصنيف في ليله، وبتدبير المملكة في نهاره. وهو كثير المؤلفات، وتقع في نحو ستين كتاباً منها الاحاطة في تاريخ غرناطة، والاعلام، فيمن بويع قبل الاحتلام، من ملوك الاسلام.

وله شعر جيد، ومنه موشحه الذي عارض فيه موشح ابن سهل فقال في مستهله:

جادك الغيث اذا الغيث همى	يا زمان الوصل بالاندلس
لم يكن وصلك إلا حلما	في الكرى او خلسة المختلس

اذ يقود الدهر اشتات المنى	تنقل الخطو على ما يرسمُ
زمراً بين فرادى وثُنى	مثلما يدعو الوفودَ الموسم
والحيا قد جلل الروض سنى	فثغور الزهر منه تبسم

وروى النعمان عن ماء السما	كيف يروي مالك عن أنس
فكساه الحسن ثوباً معلما	يزدهي منه بابهى ملبس

في ليالٍ كتمتْ سر الهوى بالدجى لولا شموس الغررِ
مال نجم الكأس فيها وهوى مستقيمَ السير سعد الأثرِ
وطرٌ ما فيه عيب سوى انه مر كلمح البصر

ابن زمرَك

(٧٣٣ — ٧٩١) هـ (١٣٣٣ — ١٣٨٩) م

ابو عبد الله محمد بن يوسف الصريحي ، ولد في غرناطة ونشأ بها ، وهو من مفاخرها ، واسع المعرفة غزير المادة حاد الذكاء طاهر الذيل ، جيد الكتابة والشعر ، كلف بالمعاني البديعة والالفاظ الصقيلة ، أحلَّه السلطان ابن الاحمر محلاً رفيعاً وخصَّه بكتابة سره بعد لسان الدين بن الخطيب ، وقد أثنى عليه هـذا في « الاحاطة » .

مات ابن زمرَك قتيلا بعد سنة تسعين وسبعمائة

وهو كثير الموشحات من ذلك قوله :

نواسم البُستانْ تنثر سلك الزَهَرِ
والطل في الأغصان ينظمـه بالجوهرِ

ورايةُ الاصباحْ اضاء منها المشرقُ
تنشرها الارواحْ فلا تزال تخفقُ
والزهر زهر فاحْ لها عيون ترمقُ

فايقظ الندمانْ تُبصرُ ما لم يُبصَرِ
جواهر الشهبانْ قد عُرضت للمشتري

وينهي موشحه بمخاطبة ممدوحه ويقول :

خذها بلا دعوى تزهى على الروض الوسيمْ
جاءت كما تهوى ارقُّ من لدنِ النسيمْ
قد طارحت شكوى من قال في الليل البهيم:
« ليل الهوى يقظانْ والحبُّ تِربُ السهرِ »
« والصبر لي خوّانْ والنوم من عيني بري »

وهذا القفل الاخير (ليل الهوى يقظان) هو مطلع موشحٍ لابن سهل ، استعاره ابن زمرك فجعله (خرجة) لموشحته اوردها بعد كلمة (قال) ، وفق ماجرت به العادة في خرجات الموشحات .

حول الموشحات

للباحثين في الموشحات آراء هي صفوة ما يذهبون اليه من حكم ونقدير ، لذلك كان من الخير أن نستعرض شيئاً من هذه الأحكام ، غير متناسين ما يمكن أن يكون فيها من اختلاف ، مردُّه الى الزاوية التي ينظر منها القائل ، والاتجاه الذي يأخذ به نفسه ، فرب معجب يصدر حكمه عن قلبه ، وناقد يزن الأمور بميزان الواقع ، فيختلفان أفقاً ونظراً ؛ على أن كل اختلاف في هذا السبيل ، شهي مرغوب فيه ، ما أمتع البصر بافق جديد ، وأمد الفكر برأي قويم .

فمن ذلك ماتحدث به المرحوم الاستاذ محمد كرد علي في كتابه « الاسلام والحضارة العربية » (١/٢٣٠) عن الشعر العربي والفنون الجميلة في الاندلس ، فذكر ان العرب « لما انتقلوا الى الاندلس جاء شعرهم خلاباً بمعانيه وتصويره وتأثيره » وان « للاندلسيين فضل

السبق في اختراع الموشحات التي تهيج النفوس الخاملة ، وتتشربها القلوب اسلاستها ، كأن سماء الاندلس أوحت الى قرائحهم بما لم توحه سماء الشرق ، وتجاري غواة القريض في نظم هذه الموشحات وترديدها الى الغاية ، واستظرفها الناس جملة لسهولة تناولها وقرب طريقتها . وقد كثرت اختراعاتهم في المعاني ، والبسوا الشعر ديباجة مستملحة كسرت قليلاً من قيوده ، وألبسته حلة مدنية كالحلل العراقية والشامية أيام رواج الشعر في بعض ادوارها الراقية »

ونقل عن شاعر الاسبان فرنسيسكو فيلا سباسا انه « لم تتهيأ للشعر العربي في عامة الاقطار التي اكتسحتها العرب تربة اصلح من تربة الاندلس ، ولا زها في بلد من البلدان زهوته في هذا البلد » .

وقال « ان روح الفروسية التي سادت القرون الوسطى ، وأحالت همجية الحروب الى مداعبات على ظهور الخيل في ميادين الألعاب ، وانجبت من الحب أدباً عالياً ، ومن المرأة صنماً

معبوداً لهي روح خلقها الشعر العربي وحملها الى العالم على اجنحة موشحاته ، فهم العالم « الأدب المنمّق » الذي سبق الرومانطيقية ببضعة أجيال ؛ ومنه كان للشعر العربي هذا التأثير في العالم ، فأحرِ به أن يكون في اسبانيا أشد بلوغاً منه في غيرها » .

ثم يقول : « وليست جميع القصائد المجموعة في كتب الاغاني الاسبانية لمختلف الشعراء سوى انتحال ما في الدواوين الشرقية من شعر ، فانك ترى ناظميها يرافقون في أناشيدهم الايقاع المتكرر في الحان الرباب ... وينتهي الى ان التأثر بالأدب العربي البادي في آداب اللغة الاسبانية ظاهر في أناشيدهم الشعبية التي تمثل نفس أمته الشاعرة » ...

وتحدث الاستاذ كرد علي عن النهضة الموسيقية الجبارة التي كانت في الاندلس ويذكر» انه كان لهم آلات من الطرب والوان من الملاهي كادوا يتفردون بها ... ودام الغناء واللهو والاوتار والرقص في الاندلس الى عهد خروج العرب منها ، على حصة موفورة ، فكان من الطبيعي أن يأخذ الافرنج عنهم، ولا يزال الى

اليوم غناء الاسبانيين يشبه غناء العرب ، وموسيقاهم كأنها موسيقاهم، وكذلك رقصهم وكثير من أدوات لهوهم ؛ وهكذا الحال في اسبانيا والبرتغال اليوم بل في جمهوريات امريكا الجنوبية ولا سيما أهل الارجنتين والبرازيل بفضل زرياب الذي رحل الى المشرق وعنه أخذ الاندلسيون وجيرانهم ... » (٢٣٧)

ويشير الاستاذ كرد علي في (خطط الشام) الى زرياب مولى المهدي ، والى مقدمه على خلفاء بني أمية في الاندلس ، وانه كان يركب في مائة غلام ؛ ويذكر عن آلة الطرب (الأرغنّ) التي تقدمت الاشارة اليها في هذا الكتاب ، انها غير الارغن الذي يعرفه الافرنج لعهدنا ، ونقل عن الخوارزمي : « ان الارغانون آلة لليونانيين والروم ، تعمل من ثلاثة زقاق كبار من جلود الجواميس ، يضم بعضها الى بعض ، ويركّب على رأس الزق الاوسط زق كبير ، ثم يركب على هذا الزق انابيب صُفر لها قصب على نِسَب معلومة ، يخرج منها أصوات طيبية مطربة مشجية على ما يريد المستعمل » (٤/١٠٦ — ١٠٧)

ويذكر الدكتور شوقي ضيف في كتابه (الفن ومذاهبه في الشعر العربي) (٢٧١ — ٢٧٥) : « ان الاندلسيين لم يستطيعوا ان يحدثوا مذهباً فنياً جديداً في الشعر العربي ، بل جمدوا عند التقليد والصوغ على نماذج الشرق من غير تعمق ، ويقرر ان صنيعهم اقتصر على الشكل، وان الغناء والموشحات والازجال هي الشيء الطريف في شعرهم ، ويرى ان فن التوشيح لا يعتدّ به كمذهب جديد في الشعر العربي ، وانما هو شيء يتجاوب والبيئة وما كان فيها من ترف ولذة ونعيم ، فأدبهم في الموشحات وغيرها لم يحدث ثورة على الأوضاع القديمة في الصياغة الفنية ، لا في صياغة التفكير ولا في صياغة الشعور ، لأن الأندلس او شعراءها على الأقل ، لم تعرف التفكير العميق الدقيق ؛ وينتهي الى أن الموشحات والازجال استمدت دلالاتها وصياغاتها من معين المشرق ومذاهبه الفنية » .

وفي رأي أحد المؤلفين القدامى (في وفيات الأعيان) :

« ان الموشحات زبدة الشعر ونخبتـه ، وخلاصة جوهره وصفوته ، وهي من الفنون التي أغرب بها أهل المغرب على

أهل المشرق ، وظهروا فيها كالشمس الطالعة والضياء المشرق » .

ويرى الاستاذ خليل الهنداوي (في نصوصه المدروسة) :

« ان الموشحات لم تخلق لتغذية الذهن وارضاء التفكير ، وإنما خلقت لاثارة الخيال والعاطفة ، وإبهاج النفس والاذن والعين ، وهي جديرة بان تحمل معها طابع الأدب الاندلسي والبيئة الأندلسية » .

ويورد الاستاذ نعيم الحمصي (في رائده) عن أحد المستشرقين :

« ان الموشحات الاندلسية تنفح العالم العربي بعطر شذي من تلك الأرض الاندلسية التي لبثت زمناً طويلاً محافظة على الروح الشامية »

ويورد قول غيره : « ان أسلوب الموشحات هو ابن ليالي الهوى وابن الكؤوس وابن الطبيعة وابن الموسيقى ، ولولا نزوعه الى التكلف البغيض ، ولولا معاطاة غير الشعراء له ، لكان جديراً به ان يكون المثل الأعلى للشعر الصحيح » .

ويقول ابن بسام في (ذخيرته) : « وهي (اي الموشحات) أوزان أكثر استعمال أهل الأندلس لها في الغزل أو النسيب ، تُشق

على سماعها مصونات الجيوب ، بل القلوب »

ويذهب المستشرق الافرنسي ديمونبين الى « ان الشعر العربي في اسبانيا وجد تربة صالحة جداً للازدهار ، واكتسب فيها عفوية فياضة ، وتذوقاً للطبيعة والحياة » .

وذكر يوسف أشباخ المؤرخ الألماني في (تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين) : « ان المرابطين كانوا يطاردون العلماء الذين يخرفون عن معتقداتهم .. ويعملون على تحطيم الروح الشعرية الاندلسية التي كانت تجد متعتها في قريض الفروسية والقصص المغرق ... ولم تطل سيادتهم أكثر من نصف قرن ، كما ان اواخر ملوكهم قد غمروا بسحر التمدن دون أن يشعروا ، فكفوا عن مطاردة الحضارة والثقافة العربيتين ، ومالوا الى مصادقة الشعراء والعلماء ولا سيما اولئك الذين شادوا في نظمهم ونثرهم بمديح حكومتهم وغزواتهم . . وقد أفادت سيادة المرابطين روح الشعب الاندلسي فخلت مكان الفروسية الهائمة ، والملاهي الناعمة ، والدعابة المصطنعة ، والفتور النسوي :

روحٌ حربية قوية ، واعتدال متقشف ، وذكاء فطري ، ورجولة متينة .

ولم يبدِ الموحدون من الغلو في مطاردة الثقافة مثلما ابداه أسلافهم ..وقد شجعوا كثيراً من العلوم ، وغمرت الشعبَ موجة من الرخاء ، وهو من العناصر المشجعة للتقدم العقلي في الشعوب » (٢٥١/٢) .

❊❊❊

الخاتمة

وبعدُ فقد بسطت دونك صفحة من الأدب والعلم ، توخيت فيها التقريب والفائدة ، ووضعت خلفها فكرة شعرتَ بها كما شعرتُ ، وعرفت كما عرفت ، وهي ان هذا الضرب من الأدب صورة عن ماضٍ حبيب ، ومرآة لزمن ممسول ، كان أيام انسام الرقمة ، وامتداد الملك ، وائتلاق الحضارة .

كان أيام حيرة الاقوام الباقيه ، وضلة الافهام التائهة ، وحالكة الاوطان المتمادية .

ولكن الدهر دول ، فما ضرب من ضربْ به ، حتى ضاع المجد من أيدي أصحابه ، واستبدل أهل الحيرة بحالهم خيراً ، فاذا نحن في الضلة والحيرة ، واذاهم في اليقظة والبناء .

ذلك اننا استبدلنا بالجد لهواً ، وتبدلوا باللهو جدا ؛ واننا بتنا أميل الى الطرب واللذة ، واصبحوا أسبق الى التعب والانتاج ؛ وكذلك تتغير الاحوال بتغير الاخلاق ، وتضيع الممالك بامتهان القيم ، وتزول الامجاد في الانغماس بالأهواء .

فليكن اذن عملنا في سبيل الحق واليقظة والصدق ، ولننتفع بالدروس التي سطرها لنا التاريخ ، وليذ كيَّرنا البحث الذي كنا فيه ، بما كان لنا في غابر الدهر ، وكيف غاض بين سمع الارض وبصرها ، عسى ان نعتبر في سبيل البناء الجديد .

وبعدُ ، فربما وقع في الطبع او الصنع بعض ما يمكن أن يقع ، وهو مما لا يبرأ منه الجُهد ، ولا يعرى منه الخَلق ، ولا يخفى على الاريب .